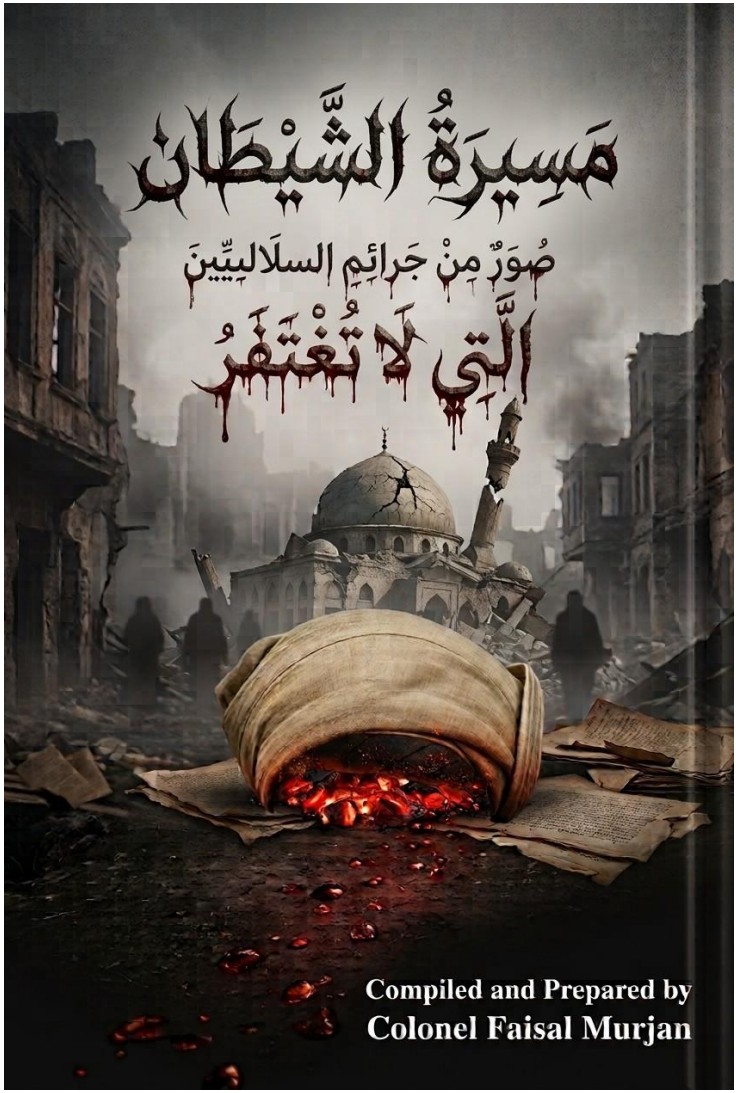
مَسِيرَةُ الشَّيْطَان
صُوَرٌ مِنْ جَرائِمِ السلَالِيِّينَ
الَّتِي لَا تُغْتَفَرُ
Compiled and Prepared by
Colonel Faisal Murjan

- أطلقوا على أنفسهم: المسيرة القرآنية وأفعالهم كلها إجرام وقتل وتشريد وتعذيب.. الخ.
- أطلقوا شعار الموت لأمريكا، وقتلوا من اليمنيين ما يزيد عن ألاف الشهداء، وشردوا الملايين.
- يسمون أنفسهم أنصار الله، بينما أفعالهم تجعلهم أنصار الشيطان.

## الجرائم اليومية والمنجزات الحوثيين في اليمن

**القصف العشوائي :**استهداف المدنيين والأحياء السكنية والأعيان المدنية بالصواريخ والطائرات المسيّرة، أسفر عن مقتل وإصابة المئات، بينهم أطفال ونساء .

**الاعتقال والتعذيب :**حالات اختطاف وإخفاء قسري واسعة طالت معلمين وصحفيين ونشطاء، مع توثيق حالات تعذيب وإعدامات داخل السجون السرية .

**التشريد :**نزوح عشرات الآلاف من الأسر بسبب القصف والمداهمات والتهجير القسري، مع استمرار المخاطر حتى في مخيمات النزوح.

**الألغام والنهب :**زراعة ألغام أرضية وسقوط الضحايا، ونهب الممتلكات واقتحام المنظمات الإنسانية.

# مقدمة

هذه ليست قصصاً. هذه شهادات.

كُتبت بدمٍ لم يجف بعد، وبصوتٍ لم يزل يئن في الزنازين، وبعينين لا تزالان تبحثان عن أبناء اختفوا في غبار صنعاء، ولم يعودوا.

عندما تسقط الدولة، لا تسقط المدن فقط. يسقط القانون، وتُدفن الضمائر، ويصبح الدم سلعةً تباع في أسواق الصلح بثلاثة ثيران. يصبح التعذيب روتيناً، والاختطاف مهنة، والقتل وسيلة لإدارة الخوف.

في هذه الصفحات، نحاول أن نروي - بقدر ما تسمح به الذاكرة - ما فعله أولئك الذين يسمون أنفسهم "أنصار الله" بأبناء اليمن. رجالاً ونساءً وأطفالاً، لم يكن ذنبهم إلا أنهم كانوا موجودين، أو أنهم أرادوا حياةً طبيعية، أو أنهم رفضوا الركوع.

سنحكي عن عبد الملك، الذي قُتل في سوق الثلوث، ودفن جثمانه في قبر مجهول، وبيع دمه بثلاثة ثيران ومليونين وأربعمئة ألف ريال خُصم منها نصيب مشايخ الصلح.

وعن أسماء، التي اختطفت مع ابنها من شوارع صنعاء، وقضت تسع سنوات في معتقلات الحوثيين، تسمع كل صباح كلمات السجانة: "لن تخرجن من هنا إلا جنازات".

وعن جهاد، التي قُتلت في بيتها لأنها قالت كلمة حق، وعن وفاء، التي قُتلت في سيارتها لأنها استلمت حوالة مالية، وعن انتصار،

التي عُذبت لأنها رفضت أن تكون جاسوسة بجسدها باسم الجهاد ونصرت مظلومية الأدعياء.
ليس هذا كتاباً للرثاء. بل قطرة من فيض وشهادةٌ لمن لا يستطيعون الشهادة. صوتٌ لمن صمتوا. ذكرى لمن يُحاولون نسيانهم.
الذين يقرؤون هذه الصفحات، فليعلموا أن كل كلمة فيها ليست خيالاً، بل حقيقة دفعت ثمناً لها أرواحٌ لا تعود، وأمّهاتٌ ينتظرن عند الباب، وأطفالٌ لا يزالون يسألون: "متى تعود أمي؟"
فالدم اليمني ليس رخيصاً. والكرامة اليمنية ليست سلعة. وهذا الكتاب هو دليلٌ على أن الذاكرة لا تموت، وأن الظلم، مهما طال، لا يدوم.
لن ننسى.
لن نغفر.
سنروي.

## المكحل

## شموخ وكبرياء وعزة يمني حميري

كان حمدي عبد الرزاق، الملقب بـ«المكحل»، شابًا يمنيًا خرج من بين الناس وحمل وجعهم وهمومهم. رفض الظلم والاضطهاد، ووقف في وجه استبداد ميليشيا الحوثي دون خوف أو تردد.

آمن أن الحرية حق لا يُنتزع، وأن كلمة «لا» قد تكون أغلى من الحياة نفسها. وحين خُيّر بين الخضوع أو الموت، اختار كرامته، وقال لقاتليه بثبات: اقتلوني، فلست خائفًا منكم.

بشجاعته وصدقه، تحول الرجل البسيط إلى رمز شعبي للكرامة والصمود.

وحين رحل، تحولت جنازته إلى صوت جماهيري غاضب يرفض القمع والاستبداد ويهتف للحرية.

وهكذا أصبح المكحل أيقونة شعبية وبطلًا يمنيًا خلّده الناس لأنه قال «لا» في زمنٍ كان الصمت فيه أسهل من المقاومة.

## حارة الميدان

في زقاق ضيق من أزقة إب القديمة، حيث تتعانق جدران الطين مع جدران الحجر، وتتلاصق البيوت كما تتلاصق الذكريات، كان ضوء الصباح يتسلل بخجل من بين الأسطح المتراصة. كان ذلك في صباح يوم خريفي من أكتوبر ٢٠٢٢، حين كانت رائحة الخبز المحمص تتصاعد من فرن صغير في نهاية الحارة، ورائحة القات الطازج المبلل بالماء تملأ الفضاء.

في منزل صغير، لا يتجاوز غرفتين ومطبخاً ضيقاً، كان حمدي عبدالرزاق الخولاني يجلس أمام كاميرا هاتفه المتواضعة.

كان في الثلاثين من عمره، نحيلاً، بوجهٍ يحمل ملامح خشنة كملامح جبال إب، وعينين واسعتين تنبضان بوهج لا يخفت. كان يرتدي ثوباً أبيض بسيطاً، وعمامةً يمنيةً بيضاء لفها على رأسه بطريقة غير متقنة، كمن لا يهتم بالمظهر بقدر ما يهتم بما سيقوله.

"بحق الله الذي قال لكم إن كنتم عظيمين لكلامه انصرونا"...

كان صوته يرتفع، ثم يخفت، كمن يتحدث إلى جمهور لا يراه لكنه يشعر به.

كانت كلماته تتساقط كالحجارة في ماء راكد: "انظروا إلى الأحزاب الفقراء والمساكين... انظروا إليهم. نحن يمنيين، نحن نتكلم بالحق... الكرش حق المسؤول، هذا المشرف واحد منكم يخزن بـ ٥٠ ألف، ٣٠ ألف، والناس جوعى، معكم فلل، معكم سيارات، وتقولوا عدوان؟ عدوان؟"

كانت الكلمات تخرج من أعماقه، ليست مجرد انتقاد، بل صرخة رجل رأى بعينيه ما لا يطاق. كان يتحدث عن الجوع الذي يملأ بيوت الناس، وعن المشرفين الحوثيين الذين يعيشون في فلل بينما جيرانهم ينامون جوعى. كان يتحدث عن الظلم الذي يراه كل يوم، وعن الصمت الذي يخنق المدينة.

في الخارج، كانت إب تعيش صباحاً عادياً آخر تحت حكم الحوثيين.

كانت الأطقم العسكرية تجوب الشوارع، ونقاط التفتيش تنتشر في كل زاوية، والأسلاك الشائكة تحيط بالمباني الحكومية. كانت المدينة تتنفس بصعوبة، كمن يلبس قميصاً ضيقاً لا يناسبه.

لكن في تلك اللحظة، كان هناك من لا يريد أن يلبس القميص الضيق.

كان حمدي يعرف أن كلماته ستكلفه غالياً، لكنه كان يعرف أيضاً أن الصمت كان أثمن.

سجل الفيديو، وأرسله إلى قناته على اليوتيوب التي بدأت تكتسب متابعين يومياً. ثم أطفأ الهاتف، ووقف، وذهب إلى المطبخ حيث كانت أمه تعد الشاي.

كان يعرف أنه كلما سجل مقطعاً جديداً، يقترب الخطر خطوة أخرى. لكنه كان يعرف أيضاً أن الخطر ليس في الكلام، بل في الصمت.

في تلك الأيام، كان الحوثيون يلاحقون كل من يرفع صوته ضدهم. كانوا يعتقلون، ويختفون، ويعذبون، ويقتلون.

حمدي لم يكن كباقي الناس.
كان لديه شيء يحركه، شيء أقوى من الخوف: الغضب. غضب رجل رأى جاره ينام جوعاً، ورأى المشرفين الحوثيين يعيشون في فلل، ورأى أطفال الحي يبحثون عن لقمة الخبز بين أكوام القمامة.
في المساء، جاءته رسالة على هاتفه: "احذف الفيديو، وإلا ستندم." قرأها، وابتسم ابتسامة باردة، وحذف الرسالة.
ثم كتب تعليقاً جديداً على صفحته: "لن أحذف. ولن أسكت. فافعلوا ما تشاؤون".
كان يعلم أن الأيام التي تليها لن تكون عادية.

## اعتقال

في الثالثة فجراً من يوم السادس والعشرين من أكتوبر، كان حمدي نائماً على فراشه المتواضع، حين سمع صوتاً كصوت الرعد يهز الباب.
لم يكن طرقاً، بل اقتحاماً.
الخشب تكسر، وتناثر الشرر في الظلام. وقف حمدي بسرعة، وقلبه ينبض في حلقه، لكنه لم يصرخ، ولم يركض. وقف هناك، ينظر إلى الباب، ورأى ظلالاً تتسلل إلى الغرفة، تحمل أسلحة وكلمات لا تفهمها.
"حمدي عبدالرزاق؟"
"نعم".

"تعال معنا".
لم يسأل لماذا، لم يقاوم.
كان يعرف أن هذه اللحظة كانت قادمة منذ شهور.
مشى- إلى الأمام، ونظر إلى الغرفة التي كان ينام فيها، ورأى أمه واقفة عند باب غرفتها، ترتجف، ويداها على فمها.
قال لها بصوت هادئ: "لا تخافي يا أمي، سأعود".
لكنه كان يعرف أنه لن يعود.
خرج من المنزل، وفي الخارج كانت الأطقم العسكرية تملأ الحارة، والأضواء الكاشفة تسلط أشعتها على البيوت كأنها تبحث عن وحش. مشى- بين الجنود، ووجهه مرفوع، وعيناه تنظران إلى الأمام، كمن يمشي إلى محراب الصلاة، لا إلى زنزانة.
في سيارة مغلقة، جلس بين رجلين، لا يرى شيئاً سوى ظلالهما.
كانت الرحلة قصيرة، لكنها بدت كالأبد.
وصل إلى مبنى إدارة أمن محافظة إب، ذلك المبنى الرمادي الذي كان يعرفه كل أبناء المدينة كرمز للخوف. دخل من باب حديدي صرير، ومشى- في ممر ضيق، ورأى أبواباً حديدية على جانبي الممر، وأبواباً حديدية أخرى في نهايته.
وضعوه في زنزانة صغيرة، لا نافذة، لا ضوء إلا مصباح خافت يتدلى من السقف. الجدران كانت باردة، والأرضية خرسانية، ورائحة العفن والبول والدم كانت تتشابك في الهواء.
جلس على الأرض، وظهره إلى الجدار، وعيناه على الباب المغلق.

لم يبكِ، لم يخاف. فقط جلس، ينتظر.
في الأيام الأولى، لم يفعلوا به شيئاً.
تركوه وحيداً، بلا طعام، بلا ماء، بلا أي شيء سوى صوت أفكاره المتلاطمة.
كان يسمع من بعيد أصواتاً خافتة: صراخ، بكاء، ضحك مجنون.
كان يعرف أنه ليس الوحيد.
في اليوم الرابع، جاءوه. دخل رجل ضخم الجثة، يرتدي زياً عسكرياً، وعلى وجهه ندبة طويلة تمتد من جبهته إلى ذقنه.
كان يحمل عصاً مطاطية ثقيلة، ويبتسم ابتسامة باردة.
"أنت حمدي الخولاني، المكحل؟"
رفع حمدي عينيه إليه، وقال بصوت هادئ: "نعم".
"أنت الذي تشتم القيادة على اليوتيوب؟"
"أنا الذي أتكلم عن الحق، وعن الجوع، وعن الظلم.
إذا كان هذا شتماً، فأنتم من علمتموني".
اقترب الرجل، ورفع العصا.
الضربة الأولى كانت على كتفه، شعر بها كصاعقة تمتد من عظم الكتف إلى أصابع قدميه.
صرخ، لكن الصراخ كان محبوساً في حلقه، تحول إلى شهقة مكتومة.
"اعترف بأنك عميل".
"ما أعرف شيء".

الضربة الثانية على بطنه، كانت أقسى، جعلته يطوي جسده إلى الأمام، لكن الجدار منعه من السقوط.
شعر بطعم معدني في فمه، كأنه عض على قطعة نقود صدئة. كان يعرف الآن أن هذا الطعم هو الدم.
"اعترف".
"ما لي به".
بدأوا يضربونه بأيديهم.
كانت القبضات تسقط على وجهه، على خديه، على أنفه. مرة، مرتين، عشر مرات.
لم يعد يحسب. أصبح الجسد كتلة من الألم لا تميز بين ضربة وأخرى. كل شيء يؤلم، كل خلية صارت تصرخ.
لكنه لم يعترف. ظل يردد: "لو كان الفقر رجلا لقتلته، هذا قول علي بن ابي طالب الذين تقولون أنكم أحفاد إبنه، ولكن افعالكم تخبرني أنكم أحفاد أبي لهب"
الكلمات تلك كانت تعريهم وأنهم أحفاد شياطين من جهنم في ثوب أحفاد الحسين.
في الليالي التالية، كانوا يأتون كل بضع ساعات، يضربونه، يسألونه، يتركونه.
كان الجوع يلتهم معدته، والعطش يحرق حلقه، والألم يملأ كل جزء من جسده. لكنه كان يعرف شيئاً واحداً: أنه إذا اعترف بشيء لم يفعله، سيبقى هنا إلى الأبد. وإذا صمد، ربما يخرج، أو يموت، لكنه سيموت شهيداً كما مات أحرار الجمهورية.

في أحد الأيام، دخل عليه رجل آخر، كان يرتدي بدلة أنيقة، ويحمل ملفاً تحت إبطه. نظر إليه بحساب، كمن ينظر إلى سلعة، ثم قال:

"أنت رجل شجاع، حمدي. لكن الشجاعة وحدها لا تكفي. نحن نملك الوقت، وأنت لا تملك شيئاً. اعترف بما نريد، وسنطلق سراحك".

نظر إليه حمدي، وتوقف لحظة. كان جسده منهكاً، وروحه تكاد تنكسر. لكن شيئاً في داخله رفض. قال بصوت مبحوح، لكنه كان واضحاً:

"لن أعترف. لن أخون نفسي. افعلوا ما تشاؤون".

خرج الرجل، تاركاً إياه وحيداً في الظلام. لكن حمدي كان يعرف أنه لم يخسر بعد. كان لا يزال حياً، وكان لا يزال يتنفس، وكان لا يزال يتذكر سبب وجوده هنا.

## الشهيد الذي لم يمت

في صباح التاسع عشر من مارس ٢٠٢٣، كان الجو في إب بارداً، والسماء مغيمة، كأنها تحاول أن تخفي ما سيحدث. في مبنى إدارة أمن المحافظة، كان حمدي لا يزال في زنزانته، جسده منهكاً، وروحه منهكة، لكن عينيه كانتا لا تزالان مفتوحتين.

في ذلك اليوم، حدث شيء لم يتوقعه أحد.

قيل إن حمدي هرب. قيل إنه قفز من شباك دورة المياه في السجن، وهرب إلى إحدى الحارات في المدينة.

ثم وصل بلاغ عن وجود جثة في بدروم عمارة قيد الإنشاء. كانت الجثة جثة حمدي.
لكن القصة لم تقنع أحداً. فكيف لرجل منهك من التعذيب، جسده مثخن بالجروح، أن يقفز من شباك دورة المياه؟ وكيف لرجل هارب أن يوجد ميتاً في بدروم عمارة، دون أي أثر للمقاومة؟
الحقيقة كانت أبسط وأقسى: لقد قتلوه. قتلوه بدم بارد، بعد خمسة أشهر من التعذيب، ثم ألقوا بجثته في بدروم عمارة ليطمسوا آثار الجريمة. لكن الجريمة كانت أكبر من أن تطمس.
في ذلك المساء، وصل جثمان حمدي إلى منزله في حارة الميدان.
كانت أمه واقفة عند الباب، تنظر إلى النعش الذي يحمله الرجال.
لم تبكِ، فقط وقفت هناك، ويداها على صدرها، وعيناها على النعش.
دخلوا به إلى الغرفة، ووضعوه على الأرض، ورفعوا الغطاء.
كان وجه حمدي هادئاً، كمن ينام. لكن جسده كان يحكي قصة مختلفة: ندبات، كدمات، آثار صعق بالكهرباء، آثار تعذيب لا تختفى.
وقفت أمه بجانبه، ومدت يدها، ولمست وجهه برفق، وهمست: "يا ولدي، لقد قتلوك... لكن صوتك لن يموت".
في اليوم التالي، كان الخميس، يوم تشييع الجنازة.

## الحوثي عدو الله

تجمع الآلاف في ساحة الجامع الكبير في إب، رجالاً ونساءً، يحملون صور حمدي، ويهتفون بشعارات ضد الحوثيين: "لا إله إلا الله، الحوثي عدو الله"، "إب الأبية لن ترضى بالذل"، "المكحل قال كلمته، ولم يمت."

كانت الهتافات تتصاعد، والأعلام ترفرف، والغضب يتدفق كالسيل.

لم تكن جنازة عادية، بل كانت انتفاضة.

انتفاضة شعب سئم الظلم، وسئم الجوع، وسئم الصمت.

كان حمدي قد أصبح رمزاً، رمزاً للصمود، للشجاعة، للرفض.

في المقبرة، حيث دفن جثمانه في تراب إب، وقف الناس يرددون: "المكحل في قلوبنا، ولن ننساه."

كانت الكلمات تتردد في الهواء كصدى لا يموت.

في الأيام التالية، بدأت المليشيا حملة اعتقالات واسعة في أحياء المدينة القديمة، بحثاً عن الشبان الذين شاركوا في الجنازة. لكن الغضب كان قد انتشر كالنار في الهشيم، ولم يعد بالإمكان إخماده.

كانت الصور التي رفعها الشباب في الذكرى الثانية لاستشهاده دليلاً على أن حمدي لم يمت حقاً، وأن كلماته لا تزال حية في قلوب من عرفوه ومن لم يعرفوه.

وفي الأخير، لم يكن حمدي عبد الرزاق الخولاني مجرد ناشط قتل في سجن الحوثيين.

كان صوتاً لمن لا صوت لهم، وكان ضميراً لمدينة خنقها الظلم، وكان رمزاً لشعب يصر على الحياة رغم كل شيء.

لقد قال كلمته، ودفع الثمن، لكنه لم يمت. فكما قال أحد المغردين: "المكحل رمز لن ينساه اليمنيون، رجل رفع صوته عالياً من وكر الإجرام الحوثي، أرادوا إسكاته وقتلوه في السجن خفية ليخفوا صوته، فصارت اليمن كلها صوته وحنجرته".

في كل عام، حين يحل ذكرى استشهاده، يرفع شباب إب صوره على جدران الحارات، وتنتشر كلماته كالنار في الهشيم، ويتذكر الجميع أن الصوت لا يموت، وأن الكلمة تبقى، وأن الشهيد لا يموت حقاً حتى يموت من يتذكرونه.

واليوم، حين تنظر إلى صورة حمدي الأخيرة، تلك الصورة التي التُقطت له في السجن، حيث كان وجهه شاحباً لكن عينيه كانتا لا تزالان تنبضان بالحياة، ستدرك أن الشموخ لا يموت. وأن إب، بأبنائها وأحجارها وتاريخها، ستظل تذكر من قال كلمة الحق، ودفع الثمن، لكنه لم يرضخ.

**"المكحل" لم يمت. هو في كل زقاق من أزقة المدينة القديمة، في كل كلمة حق تقال، في كل صوت يعلو ضد الظلم. هو في ذاكرة اليمن التي لن تموت، وفي قلوب من يرفضون الركوع.**

رجل أعزل قال «لا»؛ فاضطر القاتل إلى قتله،

لكنه عجز عن قتل تلك الـ «لا».

# ثمن الدم اليمني في ميزان أدعياء الهاشمية

## سوق الثلوث

كان صباح الخميس في وصاب السافل، والشمس تشرق على جبال ذمار كما تشرق كل صباح منذ ألف عام.

في نقطة التفتيش التي تسمى "نوح الطيور"، وقف خمسة مجرمين سلاليين يحملون كلاشنكوفات، أشرطة خضراء على أكتافهم، عمائم خضراء على رؤوسهم.

كانوا يوقفون السيارات، يفتشون الحقائب، يأخذون نقوداً من التجار، يطلقون النار في الهواء أحياناً.

لم يسأل أحدهم لماذا.

كان الجميع يعرفون لماذا.

في السوق، كان عبدالملك الأزرق الصالحي يختار الفلفل الحار. كان شاباً نحيلاً، يبلغ الخامسة والعشرين، يميل كتفه الأيسر قليلاً إلى الأمام.

كانت يداه تتنقلان بين الحبات، يوزن كل واحدة قبل أن يختارها.

"بكم الكيلو يا عمي؟" سأل.

"أربع مائة ريال، يا ولدي".
"خذها بثلاثمئة. أنت اليوم شاحب الوجه".
دفع عبدالملك، ولف الفلفل، ووضعه في كيسه. استدار ليلحق بأبيه.
خرج الرجال الخمسة من تحت خيمة النقطة. كانوا يسيرون بسرعة، أحذيتهم الثقيلة تدق الحصى.
لم يتكلم أحد.
أمسك اثنان منهم بعبدالملك من ذراعيه، سحباه خارج المحل.
لم يقاوم. لكن عينيه انطلقتا نحو أبيه.
"يا ولدي!" صرخ الأب. "خلوه! خلوه"!
كان يحاول التقدم، لكن رجليه خانتاه. مد يده نحو ابنه، وبقيت معلقة في الهواء.
بدأت الضربات. قبضات، ركلات، أحذية على جسد الشاب النحيل. سقط عبدالملك على الأرض الترابية.
ظل الأب يصرخ. والرجال يضربون. ثم سمع صوتاً واحداً علاهما جميعاً:
"يموت"!
هدأ الجسد. توقفت الركلات. رفع أحدهم الجسد، ألقاه على مؤخرة الطقم العسكري، وانطلق الطقم.
وقف الأب مكانه. يداه لا تزالان ممدودتين. عيناه لا تزالان تنظران إلى حيث كان ابنه.

جاء رجل من السوق، وضع يده على كتف الأب. لم يقل شيئاً. وقفا معاً ينظران إلى غبار الطريق.
عندما عاد الأب إلى المنزل، دخل دون أن يتكلم.
جلست زوجته، كانت قد أعدت الغداء. وضعت طبق أرز، وطبق خضار، وطبقاً ثالثاً بجانبهما.
نظرت إليه، ثم إلى الطبق الثالث.
بكت دون صوت. قام أحمد، رفع الطبق الثالث، وضعه في المطبخ.
عاد وجلس، وضع لقمة في فمه، لكنها بقيت هناك.
ولم يقل شيئاً.

## حكاية الأب

في الأيام التالية، ذهب الأب إلى نقطة التفتيش. وقف أمام الرجال الخمسة، وقال: "أريد الجناة".
نظروا إليه. قال أحدهم: "سنحقق".
ذهب إلى مبنى الأمن في ذمار. جلس أمام رجل خلف مكتب، قال له: "ابني قتلوه في سوق وصاب".
قال الرجل، دون أن يرفع عينيه عن الورق: "اكتب شكوى".
كتب. قدم الورقة. قالوا له: "ارجع بعد أسبوع".
عاد بعد أسبوع. قالوا: "القضية قيد الدراسة".
عاد بعد شهر. قالوا: "القاضي مشغول".
عاد بعد شهرين. قالوا: "الجناة فروا".
قال الأب: "هم في نفس النقطة. رأيتهم".

نظر إليه الموظف. قال: "ارجع بعد أسبوع".
عاد. قالوا: "التحقيق مستمر".
عاد. قالوا: "نحتاج وقتاً".
عاد. قالوا: "لم نجد أحداً".
في اليوم التالي، ذهب إلى النقطة مرة أخرى. وقف أمامهم. قال: "أريد ابني. أريد دفنه".
قال أحدهم: "ابنه في ثلاجة المستشفى".
ذهب إلى المستشفى. دخل غرفة الثلاجة.
رأى جثة ابنه، باردة، صلبة، مغطاة بملاءة بيضاء.
كانت هناك منذ شهور.
نزع الملاءة، نظر إلى الوجه. كان وجه عبدالملك، لكنه لم يكن عبدالملك. كان شيئاً آخر.
وضع الملاءة، وخرج.
ذهب إلى مكاتبهم في ذمار. قال: "أريد دفن ابني".
قالوا: "لا تدفن حتى تنتهي القضية".
قال: "القضية لم تنتهِ منذ عام".
قالوا: "اصبر".
ذهب إلى المشايخ؛ أشباه الرجال ولا رجال قالوا: "اصبر".
ذهب إلى مكتب المحافظ ينادونه بالبخيتي ؛ أحد أبناء قبائل ذمار المشهورين ولكنه كان يوصف بدجال الحوثيين الأكبر ؛ كان ينتمي للحوثيين ، كان بلا أدنى كرامة ؛ كان عبداً باع رجولته

في محراب خرافة الولاية والهاشمية قال لوالد المجني عليه:
"اصبر سأحقق في الأمر شخصياً ؛ ولم يتم شيء".
رجع إلى البيت كسيراً حزيناً.
جلس في المطبخ.
نظر إلى الطبق الثالث الذي مازال في المطبخ، إلى كيس الفلفل الذي لم تفتحه زوجته.
نظر إلى الحائط.
في منتصف الليل، سمع ضجة في الخارج. فتح النافذة. رأى طقماً عسكرياً يمر في الشارع. لم يعرف لماذا.
في الصباح، أخبره جاره: "اقتحموا المستشفى البارحة. أخرجوا الجثث من الثلاجة. دفنوها".
ركض إلى المستشفى.
دخل غرفة الثلاجة.
المكان فارغ. لا جثة. لا ابن.
ذهب إلى المقبرة.
مشى بين القبور.
وجد تراباً جديداً، دون اسم، دون حجر.
وقف أمامه طويلاً.
لم يكن يعرف إن كان ابنه هناك.
وأثناء خروجه من القبره سمعهم يتهامسون بأن أقذر رجل في ذمار هو من وجه بدفن الجثة، لأن سيد الكهف عاتبه وعنفه إذا لم يتم إنهاء هذه القضيه فسيدفع هو الثمن شخصياً

عاد الأب إلى البيت.
دخل.
جلس.
في المساء، جاء رجل من الديوان. قال: "يا عم أحمد، غداً عند الشيخ فضل. الصلح".
لم يقل الأب شيئاً.

## ديوان الشيخ

بعد عام، جلسوا في ديوان الشيخ فضل الحداد الذي يدعي أنع ينتمي للسلالة الهاشمية ويعتبر من أنصار العصابة الحوثية.
كان الشيخ رجلاً بديناً، واسع الجبهة، عمامة خضراء على رأسه. إلى جانبه رجال آخرون، بعضهم يحمل مسدسات، بعضهم يحمل أوراقاً، كلهم يرتدون العمائم. وفي الزاوية، بعيداً عنهم، جلس أحمد فاضل، الأب. كان وجهه غائراً، وعيناه غائرتين، وثوبه رمادياً مهلهلاً.
كان الجاني جالساً في الزاوية المقابلة، رجلاً في الثلاثين، وجهه مستدير، لحيته خفيفة. كان يبتسم، يشرب القهوة، يتبادل الحديث مع من حوله.
قال الشيخ فضل بصوته الجهير: "يا عم أحمد، نحن هنا لإنهاء هذه القضية. لا خير في طول الخصام. والله يقول: {فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف}. أنت رجل حكيم. خذ الدية وارحم عيالك".

رفع الأب رأسه. نظر إلى الشيخ، إلى الجاني، إلى الرجال. قال بصوت مبحوح: "يا شيخنا، أنا لا أريد دية. أريد حق ولدي".
قال أحد الرجال، ذو اللحية الكثيفة: "يا عم أحمد، القضية قُدّرت. والجناة يعترفون بالخطأ. خذ ما هو لك".
نظر الأب إلى الرجال. كان يعرفهم جميعاً. كان قد ذهب إليهم مراراً في العام الماضي، إلى مكاتبهم في ذمار، إلى نقاط تفتيشهم، إلى مجالسهم. كان يسأل عن ابنه، عن الجناة، عن المحاكمة. كانوا يقولون له: "نحن نبحث. نحن نحقق. انتظر." وظل ينتظر عاماً كاملاً، حتى جلس اليوم في هذا الديوان.
قال الشيخ فضل بنبرة أخفض: "والله يا أحمد، أبوك لو كان بيننا، لقال لك: خذ الدية".
قبل أيام، في منتصف الليل، سمع الأب ضجة في الخارج. في الصباح، أُبلغ أن جنوداً اقتحموا مستشفى القدس، أخرجوا جثة ابنه من الثلاجة، دفنوها في قبر مجهول. لم يحضروا جنازة، لم يصلوا عليه، لم يخبروا أحداً. ذهب الأب إلى المستشفى، وجد الثلاجة فارغة. ذهب إلى القبر، وجد تراباً جديداً دون اسم. عاد إلى البيت، جلس دون أن يتكلم.
الآن، في هذا الديوان، قال أحد الرجال وهو يقرأ ورقة: "الدية ستة ملايين ريال. بعد خصم الوساطة، يبقى مليونان وأربعمئة ألف. والباقي ثلاث ثيران".

وقف الأب، خرج إلى الفناء. نظر إلى الثيران الثلاثة المربوطة. أحدها يعرج، يئن. والآخر يحاول الإفلات من حبله. وقف ينظر إليهم طويلاً. ثم عاد وجلس.

"قبلت".

ارتاح الجمع. وقف أحدهم وقال: "آل الصالحي يعفون عن محمد الفقيه لوجه الله".

وقف الجاني، جاء إلى الأب، مد يده. لم يمد الأب يده. أمسكها الجاني قسراً وصافحها. ثم عاد إلى مكانه، وجلسوا جميعاً يتناولون القهوة.

كان الأب جالساً على حافة الدائرة. يسمع ضحكاتهم، يسمع أحاديثهم عن الطقس والمحاصيل. كان ينظر إلى الثيران في الفناء. إلى الثور الأعرج الذي يئن.

في تلك الليلة، عندما خلا البيت، وقف الأب أمام باب الغرفة. نظر إلى السماء المليئة بالنجوم. كان يحمل شيئاً في يده، لا يتذكره، وجد نفسه قد التقط قطعة من حبل الثور. مسكها، ثم ألقاها بعيداً. دخل، أغلق الباب.

**العودة**

عاد الأب إلى سوق الثلوث بعد أسبوع. وقف أمام دكان بائع الخضار نفسه.

"أريد فلفلاً حاراً".

لفه البائع، سلمه إليه.

وقف الأب في المكان الذي سقط فيه ابنه. أغمض عينيه. سمع الصوت: "يموت"!

فتح عينيه. رأى السوق كعادته: غبار، أصوات، أطفال، بضائع. رأى نقطة التفتيش في البعيد، العلم الأخضر يرفرف، الرجال الخمسة واقفون. رأى طقماً عسكرياً يمر، وغباراً كثيفاً.

وقف مكانه دقائق. ثم مشى.

في الطريق إلى المنزل، مر بجانب الديوان. كان الشيخ فضل جالساً في الفناء، يشرب الشاي مع بعض الرجال. رأى الأب، رفع يده مسلماً، عاد إلى شربه.

أكمل الأب طريقه. كان يحمل كيس الفلفل. كانت يداه ترتجفان قليلاً.

عند باب المنزل، وقف. نظر إلى الجبال، إلى نقطة التفتيش البعيدة، إلى العلم الأخضر. وقف طويلاً. لم يقل شيئاً. دخل، أغلق الباب.

في الليل، بينما كانت زوجته نائمة، جلس الأب في غرفته. كان ينظر إلى كيس الفلفل، إلى الصور على الرف، إلى الجدران الطينية. سمع صوتاً. اعتقد أنه الصوت القديم، الصوت الذي يتبعه منذ عام: "يموت"!

لكن الصوت هذه المرة كان مختلفاً. كان صوت ابنه، كأنه يقول شيئاً آخر. لم يفهمه. لكنه جلوسه مكانه، ينظر إلى الباب المغلق، وإلى النافذة التي يطل منها القمر، وإلى كيس الفلفل الذي لن تفتحه زوجته أبداً.

في صباح اليوم التالي، خرج الأب إلى الفناء. رأى الحبل الذي كانت مربوطاً به الثيران، لا يزال هناك. نظر إليه طويلاً. ثم عاد إلى داخل البيت.

وفي سوق الثلوث، كان اليوم خميساً آخر، مثل كل خميس. نقطة التفتيش تعمل كالمعتاد.

القتلة واقفون. السيارات تتوقف. الحقائب تفتش. النقود تؤخذ. وفي مكان ما، بعيداً عن السوق، في بيت طيني صغير، كان أب يجلس أمام باب مغلق، يحمل كيس فلفل لا يفتحه، وينتظر شيئاً لا يعرف متى سيأتي.

كان ينتظر عدالة السماء عندما أضاعها أدعياء الهاشمية تحت مسمى مظلومية آل البيت.

## اتهموه بالخيانة وقتلوه تحت العذيب

### عظامٌ لا تشهد

لم تكن رائحة الموت في السجن المركزي بمدينة رداع رائحة جثة؛ بل كانت رائحة الحديد القديم المبلل بالعرق، ورائحة الخرسانة الرطبة التي تمتص الأنين؛ الساعة كانت تشير إلى الثالثة فجراً من ليلة العشرين من يوليو ٢٠٢٦، حين كانت قطرات المطر تتسرب من ثقب ضيق في سقف الزنزانة رقم ٧، فتسقط على جبهة محمد أحمد حسين الهدار.

لم يعد محمد يشعر بالبرد؛ لقد تجاوز الألم حدود الجسد، وصار صدره يصدر صريراً خفيفاً مع كل محاولة تنفس؛ كأن الأضلاع المكسورة تحاول النطق باسم قاتلها؛ كان أنفه المشوه ينزف دماً متخثراً، وعيناه الغائرتان تحدقان في نقطة الضوء الخافتة

العالقة فوق رأسه، كأنه في صراع أخير مع غيبوبةٍ تسحبه إلى الأسفل.

في الممر المقابل، جلس الحارس "صالح" -شابٌ نحيل في العشرينيات، كان جلده شاحباً وعيناه تحملان قلقاً دائماً- على كرسي خشبي متهالك؛ كان يقلب مفتاحاً صدئاً بين أصابعه، ويتوقف كلما سمع صوت صرير الأبواب؛ كان يعرف جيداً أن محمداً يحتضر، لكنه كان يعرف أيضاً أن آخر شخص طلب الإسعاف في هذا المكان، عُثر عليه بعد يومين وقد أُكل وجهه من الجرذان؛ وضع صالح المفتاح في جيبه، ونظر إلى الجدار الفاصل بينهما، كأنه يقرأ رسالة مكتوبة بالدم على الطوب.

## الجدار الذي يعرف السر

قبل أربعة وخمسين يوماً من هذه الليلة، وتحديداً في السادس والعشرين من مايو، كانت شوارع صنعاء تموج بحركة السيارات وأصوات الباعة؛ جلس محمد في مقهى صغير قرب سوق الملح، يحدق في كوب شاي مر لم يلمسه، ويقلب حبات سبحة بنية بين أصابعه؛ كان عمره تسعة وعشرين عاماً، وقد أنهكته ثماني سنوات من القتال في صفوف الجماعة.

التقط محمد هاتفه، واتصل بأمه في منطقة عزة؛ سمع صوتها المتعب يقول: "يا محمد، أنت متى تطلع من ذاك الجحيم؟"؛ ضغط على كفه حتى بانت عروقه، ورد بصوتٍ مبحوح: "بعد أسبوعين يا أمي، سأفتح دكان أقمشة، وأعيش بجانبك، لن أقاتل بعد اليوم."

كان يعلم أن من ينسحب من التنظيم يُعد "خائناً"؛ لكن دفعتْه الرغبةُ في أن يعيش، في أن يشم رائحة الخبز المحمص في بيت أمه؛ لكنه لم يعلم أن أحدهم كان يراقبه من المقعد الخلفي في المقهى، ويرسل رسالة نصية قصيرة.

في تلك الليلة، وبينما كان يمشي- متجهاً نحو سيارته، شعر بذراعين حديديتين تعصره من كتفيه؛ التفت ليجد الرجل الذي كان يجلس خلفه يمسك بمسدس، ويهمس في أذنه بصوتٍ أجش: "محمد أحمد حسين الهدار؟"؛ حاول محمد أن يبتسم، وقال جملته الارتجالية: "أنا أخوكم، أنا واحد منكم"، لكن الرجل زم شفتيه بعنف، وأداره وقذف به في سيارة رباعية الدفع؛ لم تكن هناك مذكرة اعتقال، ولا تهمة؛ في قاموسهم، كان "الانسحاب" جريمة تستوجب العقاب، وكانت العقوبة تبدأ من لحظة انغلاق باب السيارة.

استيقظ محمد في زنزانة بصنعاء، مقيّداً إلى عمود حديدي؛ لم يظهر له أي محقق؛ بل مر يومان على الصمت، ثم جاء أمر النقل.

في صباح اليوم الثالث، وُضع في صندوق شاحنة عسكرية مسقوف، مع ثلاثة سجناء آخرين، جميعهم مكبلين بالأصفاد حتى صارت معاصمهم زرقاء كالموتى؛ كانت الشاحنة تسير بتهور؛ فكلما اتجهت لمنعطف حاد، ارتطم جسده بالحديد، وتكدست الكدمات فوق جلده؛ التقطت أذناه همس سجين

عجوز يشير إليه: "وصلنا رداع؛ هناك سيلتقيك "الأسود"..؛ لا تتمنى لقاءه."
عند وصولهم إلى السجن المركزي في رداع، استقبلهم ضابط ضخم الجثة، عيناه الصغيرتان لا ترمشان، وعلى يديه آثار حروق قديمة كأنها بصمات غضب متحجر؛ نظر إلى محمد، وابتسم ابتسامة باردة: "هذا الذي نكث العهد؟."
أُجبر محمد على الجلوس على كرسي حديدي قرب مصباح خافت وحيد؛ بدأ الضابط -الذي عرفه الحراس بلقب "الأسود"- الاستجواب ببرود غريب: "من الذين واعدتهم في صنعاء؟"؛ حاول محمد أن يشرح: "أنا لم أخطط لأي شيء، أردت فقط أن أتوقف، أريد أن أعيش حياة طبيعية."
لم يستمع الأسود للكلمات؛ بل انتظر حتى نهاية الجملة، ثم رفع كفه وصفع محمداً بقوة، فطارت رأسه إلى الخلف، ثم انقضّ بقبضته على أنفه؛ سمع محمد صوت طحنٍ مكتوم، فانفجر الدم من منخريه، بينما سقطت ركلة "الأسود" على خاصرته، فصدر صوت تكسر الأضلاع كسقوط حجارة يابسة؛ همس الأسود في أذنه بصوتٍ خفيض: "التراجع ليس قراراً؛ إنه خيانة، والخيانة توقيعك الأخير في سجل لا يُغلق"؛
ثم أمر بنقله إلى الزنزانة رقم ٧.

**وصية الأسود**

مرت أسابيع، وتحولت إلى ظلام دائم في الزنزانة رقم ٧؛ لم تكن غرفة؛ بل قبر محفور في الخرسانة؛ كانت رائحته مزيجاً من الدم

الجاف والقش المتعفن؛ لم يكن محمد يرى الفجر؛ بل فقط ذلك الضوء الضعيف المتسلل من الفتحة، يسمع أصوات الصراخ من الزنازين المجاورة.
كانت جراحه تتفاقم، والالتهاب يلتهم أنفه، والأضلاع المكسورة تجعل كل شهيق يمر كسكين حاد؛ طلب المساعدة من أي حارس يمر، فكانوا يبتعدون كأنهم لم يسمعوا.
في الليلة التاسعة والعشرين من احتجازه، اقترب صالح من باب زنزانته، حاملاً كوب ماء وقرص دواء مسكن؛ كان صالح يمر بهذا الطريق كل ليلة، لكنه اليوم توقف؛ نظر إلى محمد الملقى على الأرض كجثة حية، ووضع الكوب أمام القضبان، وهمس بصوتٍ متقطع: "أنت مريض جداً يا محمد."
رفع محمد رأسه بصعوبة، وحدق في عيني صالح؛ لم يكن صالح ضابطاً؛ كان مجرد شابٍ جندته الحرب وأرهقها الخوف: "لست أطلب الحرية يا صالح..؛ أريد فقط طبيباً، أريد أن أنتقل إلى المشفى."
ارتعشت يد صالح وهو يمسك القضبان؛ نظر حوله بقلق، ثم قال بصوت خفيض كأنه يسرّ لنفسه: "الأسود أمر؛ قال إن من يموت هنا، فقد أهمل نفسه؛ لا أحد يخرج من هنا إلى المشفى يا محمد."
جمدت الكلمات في قلب محمد؛ أدرك حينها أنهم لا يعذبون ليصلحوا؛ بل يعذبون لقتلوا ببطء، ليكون قبره عبرةً لمن يفكر بالانسحاب.

في تلك الليلة الأخيرة، اشتدت الأمطار، وقطرات الماء تسربت من السقف، تضرب جبهة محمد المحمومة؛ كان صدره يرتجف، وعيناه تحدقان في السلاسل، وبدأ يسمع أصواتاً لا وجود لها؛ صوت أمه تطبخ العصيدة، وصوت أخيه الشهيد يقول له: "لا تذهب معهم."

في الساعة الثانية فجراً، سمع صالح صوت خطوات ثقيلة قادمة من نهاية الممر؛ كان يعلم أن "الأسود" لا يخرج في هذا التوقيت إلا لهدف واحد؛ تجمد صالح خلف العمود، ورأى الأسود يفتح باب الزنزانة رقم ٧، ويدخل حاملاً سوطه الجلدي؛ رفع الأسود السوط، وضرب جسد محمد؛ سمع صالح صوت السوط يلامس اللحم مرتين، لكنه لم يسمع أي صراخ؛ توقف الأسود، ورفع رأس محمد بيده، فلاحظ أن عينيه مفتوحتان، لكنهما فقدتا بريق الحياة.

ألقى الأسود الرأس، وخرج، وأغلق الباب خلفه بهدوء.

*لم يجرؤ صالح على الاقتراب قبل أن يختفي الأسود في نهاية الممر؛ كان يعرف أن أي تدخل منه لن ينقذ محمد، بل سيجعله الجثة التالية فوق أرضية الزنزانة نفسها .*

في صباح العشرين من يوليو، مع شروق الشمس، دخل صالح الزنزانة في موعده المعتاد؛ وجد محمداً ملقى على الأرض، قد تدلت رأسه على صدره المكسور، وعيناه مفتوحتان بلا حياة؛ وقف صالح لثوانٍ طويلة، يشعر بحصى مرتفعة في حلقه، ثم استدار وصرخ بصوت متقطع: "لقد مات."!

انجـذب الحـراس، ونظـروا بـبرود، ثـم وصـل أمـر مـن الإدارة: "ضعوا الجثة في الثلاجة؛ سنقول إنه توقف قلبه."
لكـن صـالحاً لـم يتحـرك؛ شـعر بشيءٍ ثقيـل في صـدره؛ ذنـب لا يخصـه، لكنـه التصـق بجلـده؛ نظـر إلى جسـد محمـد، ثـم تـذكر قطعـة القمـاش التي لمح محمداً يخفيها قبل أسبوع خلف أحد أحجـار الجـدار؛ لـم يكـن يهـتم حينهـا، لكنـه الآن تـذكر موقـع الحجـر بالتحديـد؛ كـان حجـراً يختلـف عـن بـاقي الحجـارة، لا لشكله، بل لأن محمداً كان يمسحه بيده كلما مرّ بجواره.
اقترب صالح من الجدار، وأزاح الحجر بيدٍ مرتجفة؛ وجد قطعة قمـاش رفيعـة، مطويـة؛ فتحهـا بحـذر، فوجـد خطـوط محمـد المتهالكة بالفحم؛ كانت الرسالة تحمل تفاصيل دقيقة: أسماء الـذين أصـدروا أوامـر التعـذيب، وتوقيعـات سرية، وجملة أخيرة تقـول: "الأسـود رفـض تحـويلي للمشـفى؛ الأسـود هـو مـن سـلمني للموت؛ اسألوا عن مدير المستشفى، المبلغ الذي دُفع له."
وقـف صـالح لثوانٍ، يحـدق في الورقة، مـدركاً أنهـا لـم تعـد مجـرد شـكوى سـجين؛ بـل كانـت زنـاداً يمكـن أن يفجـر السـجن بأكملـه؛ لكن قبل أن يُكمل التفكير، سمع خطوات خلفه؛ التفت ببطء، فوجـد "الأسـود" واقفـاً عـلى بـاب الممـر، عينـاه الصـغيرتان لا ترمشـان، وعـلى يديه تلك الحـروق القديمـة الـتي تشـبه بصـمات القسوة.

لم يتكلم الأسود؛ فقط نظر إلى يد صالح، وإلى القماشة التي يمسكها، ثم رفع إصبعه، وأشار إلى الحذاء الذي تُخفي فيه الورقة، ورسم ابتسامة خفيفة على شفتيه.

اقترب منه الأسود بخطوة ثقيلة، وتوقف على بعد ذراع، وقال بصوت منخفض كصوت الحصى المتكسر:

"وجدتَ ما كنت تبحث عنه؟"

# حكاية روحان

## جبل لا ينام

لا شيء يخترق صمت جبال إب إلا ريح تهب من لا مكان، تحمل معها غبار السنوات وهمس الأسماء المنسية؛ قرية روحان، تلك البقعة العالقة بين وديان الشعر مثل عقد منسي.

في عنق الجبل، لا تعرف من يمر بها إلا من يبحث عن ظل أو عن مأوى؛ بيوتها من طين وحجر، تلتصق ببعضها كأنها تخشى السقوط في الهاوية، ونوافذها الصغيرة تحدق في الفراغ كعيون شيخوخة تنتظر موعداً لا يأتي.

في قلب هذه القرية، حيث تتلاشى أصوات الدنيا تحت وطأة الصمت الجبلي، كان منزل أحمد صالح الغزالي؛ ليس منزلاً عادياً، بل حصن من الذكريات والأسرار، جدرانه تذكر كل زلزال هز الأرض وكل ليلة صاخبة بالرصاص؛ خمسة وخمسون عاماً مضت على عمر الغزالي، خمسة وخمسون خريفاً من حياة يمنية لم تعرف الاستقرار؛ كان وجهه محفوراً بتجاعيد عميقة كأخاديد الجبل، وعيناه غائرتان تحملان وهجاً غريباً بين رمادها، كمن رأى ما لا يرى وسمع ما لا يقال.

كان في شبابه فتىً مختلفاً؛ بينما كان أبناء قريته يلهثون وراء قطعان الماعز أو يكدحون في حقول القات، كان أحمد يلعب بالحديد والبراغي؛ أبوه، صالح الغزالي، كان صانعاً ماهراً للأسلحة التقليدية في أيام الملكية، علمه أسرار المعادن وكيف تتحول قطعة حديد باردة إلى أداة لها صوتها الخاص؛ لكن أحمد مضى- أبعد، روحه الهندسية لم تكتفِ بصنع البنادق التقليدية؛ كان يحلم بأن يفكك العالم ذرة ذرة، ثم يعيد تركيبه بطريقته.

كانت ورشته الصغيرة ملحقاً بالمنزل، لا يسمح لأحد بدخولها إلا هو؛ هناك، بين علب الصفيح وأسطوانات الغاز الفارغة والأسلاك النحاسية، كان يخترع عوالم خاصة؛ جيرانه في روحان يعرفونه رجلاً هادئاً، قليل الكلام، كثير التأمل؛ لكنهم كانوا أيضاً يعرفون شيئاً آخر: أن أحمد الغزالي لا ينسى.؛ وأن عداواته، حين تنمو، فإنها تنمو مثل شجر السدر، ببطء، ثم فجأة تغطي السماء.

## خمسة أيام بلا ظل

بدأ كل شيء في صباح يومٍ لم يختلف عن غيره؛ كانت الشمس قد تسللت خجولة خلف قمة جبلية، تمد أشعتها الذهبية مثل أصابع مترددة تلمس أسطح المنازل الطينية؛ لم يسمع أحد في روحان صوت المنادي، ولم ير أحد القافلة العسكرية القادمة من المدينة؛ لكنهم شعروا بها: في اهتزاز خفيف تحت الأقدام، في ذبذبات الهواء التي حملت رائحة البنزين والحديد.

كان أحمد واقفاً على سطح منزله، يحتسي قهوته المرّة التي لا يضيف إليها سكراً قط؛ عيناه نصف المغمضتين لم تفارقا نقطة الأفق حيث يتعرج الطريق الترابي بين الصخور الجرداء؛ رآهم من بعيد، وهم يتسللون مثل الأفاعي؛ لم يدهشه الأمر، بل كأنه كان ينتظر.

كانت المليشيا تطارده منذ أشهر؛ خلاف عائلي قديم، بدأ كصراع بين جارين، ثم توسع كالنار في حقل يابس ليشمل الولاءات والانتماءات؛ في مجتمع إب، حيث العشائر تحكمها قوانينها الخاصة، كان الغزالي عنيداً لا يحني رأسه؛ كانوا يريدونه أن يسلم نفسه، أن يقر بذنب لم يرتكبه، أن يدفع دية لا يستحقها، لكن أحمد كان من طينة لا تلين للريح.

أحاطوا بالمنزل كأنهم يطوقون وحشاً؛ ولم يفعلوا شيئاً خلال الأيام الخمسة الأولى؛ كانوا ينتظرون، ربما كانوا يظنون أن الجوع أو العطش سيلينان عظمته؛ كانوا يعرفون أن الرجل وحده في المنزل، لكنهم أيضاً كانوا يعرفون – على نحو غريزي – أن اقتحام ذلك البيت سيكون له ثمن.

في الليل، كانت أصواتهم تتردد بين الجبال، أصوات أقدام، أصوات أسلحة تُفحص، أحياناً ضحكة؛ لكن في منزل الغزالي، كان الصمت مطلقاً؛ لا ضوء، لا صوت، لا حركة؛ وكأن المنزل نفسه فارغ، كأنه مجرد قشرة حجرية مهملة.

ماذا كان يفعل في تلك الأيام الخمسة؟ لا أحد يعرف؛ كانت جدران المنزل تحتفظ بسرها؛ ربما كان يجلس في غرفته

المظلمة، عيناه مفتوحتان على الظلام، يعد الخطوات، يحسب الزمن، يرسم في ذهنه خريطة لكل زاوية، كل نافذة، كل ممر؛ وربما كانت أصابعه، تلك الأصابع التي تعودت على لمس المعادن، تلمس بهدوء أسطوانات الغاز المخبأة، كل واحدة في مكانها المحسوب تماماً.

في الرابع من تلك الأيام، في ليلةٍ خيم فيها الضباب الكثيف، فتح أحمد الباب الخلفي بصمت؛ خرجت منه امرأة وثلاثة أطفال، يتسللون بين الصخور كأشباح؛ لم ينطق بكلمة، لم يودعهم بنظرة، فقط دفعهم برفق نحو بيت الجيران، ثم عاد وأغلق الباب خلفه.

كانت هذه خطوته الأخيرة: التأكد من أن المعركة ستكون له وحده.

## حين تنفجر الأرض

اليوم السادس؛ في الساعة الرابعة فجراً، عندما يكون النوم في أعمق مراحله، والجبال ملفوفة بظلام لا ترحمه حتى النجوم؛ كان عناصر المليشيا قد نفد صبرهم؛ خمسة أيام من الانتظار تحت سماء مفتوحة، تارة تحت المطر وتارة تحت شمس إب اللاهبة، جعلتهم ثائرين وغاضبين؛ قائد الحملة، رجل في الأربعين من عمره، أعطى الإشارة باقتحام المنزل.

قاموا بتكسير الباب الخشبي العتيق؛ أول من دخل كان شاباً في العشرين، مدفوعاً برغبة في إنهاء المهمة بسرعة؛ خطا بضع خطوات في الردهة المظلمة، ثم...

لم يسمع أحد الانفجار بوضوح؛ كان صوتاً ليس عالياً بقدر ما كان خارقاً، كأن الأرض نفسها تنشق؛ تدحرجت موجات الضغط في كل اتجاه؛ أسطوانات الغاز التي أخفاها أحمد في أعمدتها الحجرية، وفي فجوات السقف، وفي فراغات الجدران، انفجرت في آن واحد تقريباً، وكأنها كانت تنتظر فقط قدومهم.

انهار المنزل على رؤوس العناصر الذين دخلوه، سقف من طين وحجارة يهوي بسرعة مخيفة؛ لكن أحمد لم يكن في المنزل؛ كان قد ترك الوشاح الخادع ليقوم بعمله، وخلال الفوضى والغبار، انسل من بين شقوق الجدران الخلفية التي كان هو من حفرها قبل سنوات، متنبئاً بما قد يأتي.

خرج من بين الأنقاض مثل شبح عجوز، بندقيته القديمة في يده، وعيناه تشتعلان بوهج لم يعد ينتمي لرجل في الخامسة والخمسين، بل لجنرال شاب يستعيد ساحة معركته.

والآن بدأت المواجهة الحقيقية.

الشمس كانت قد بدأت في الشروق، تضيء المشهد برفق: رجال مذعورون يصرخون حول أنقاض منزل، بعضهم يحاول سحب جثث زملائه المدفونة تحت الحجارة، وآخرون يطلقون النار في كل اتجاه؛ بينهم، على بعد أمتار قليلة، وقف أحمد الغزالي؛ لم يختبئ، لم يركض، وقف في العراء كمن تحدى الموت.

كانت نبرته هادئة حين صاح بهم:

- "تعالوا، يا كلاب؛ هنا أنا".

أطلقت عليه النار، لكن الرصاصات لم تصبه؛ كان يتحرك كالثعبان بين الصخور، يختفي ثم يظهر في مكان آخر، ليس كرجل كبير في السن بل كخبير متمرس في جغرافية الجبل؛ تبادل إطلاق النار استمر لساعات، لكن النتيجة كانت دائماً واحدة: من يختبئ في قلب الجبل، وتكون الصخور حلفاءه، يظل المنتصر.

عند الظهيرة، كان الجندي السابع يسقط بين يدي أحمد، إصابة مباشرة في الكتف؛ لم يبقَ من الحملة سوى جثتين، وخمسة جرحى يتشبثون بالحياة؛ لم يعد هناك من يهدد الغزالي؛ كان يمكنه الفرار، أن يختفي بين الوديان، أن يعيش ليقاتل يوماً آخر. لكنه لم يفعل.

وقف أحمد صالح الغزالي في ساحة القرية، تحت شمس إب الحارقة التي كانت قد بلغت ذروتها؛ كان وجهه مغبراً، ملطخاً بدماء ليست دماءه، وقميصه الأبيض قد تحول إلى لون الطين والصدأ؛ رفع بندقيته عالياً، ونظر نحو السماء كمن يقرأ آية مجهولة، ثم سحب نفساً عميقاً، طويلاً، كأنه يتنفس للمرة الأخيرة.

ما حدث بعد ذلك لا يعرف تفاصيله أحد على وجه اليقين؛ قال بعضهم إنه أطلق الرصاصة الأخيرة في الهواء، ثم وضع بندقيته على الأرض واستسلم؛ قال آخرون إنه قاتل حتى الرمق الأخير، وإنهم وجدوه واقفاً على قدميه، جسد مثقوب بالرصاص، لكن

عينيه كانتا مفتوحتين، تنظران نحو الجبل كمن يرى ما لا يراه الأحياء.

لكن اليقين الوحيد، اليقين الذي لا ينازع فيه أحد، أن أحمد صالح الغزالي قُتل في ذلك اليوم؛ جسده الذي ظل صامداً طوال أسبوع، والذي قاد ثمانية رجال إلى مصيرهم بين الموت والجرح، استسلم أخيراً لرصاصة، أو لعشر رصاصات، لا أحد يعرف.

## جثمان في مهب الريح

في اليوم التالي، لم يصدق أهل روحان ما سمعوه؛ لم يصدقوا أن أحمد قد مات، لأنهم في قرارة أنفسهم كانوا يعتقدون أن رجلاً مثل الغزالي لا يموت، أنه جزء من الجبل، من الصخر، من الريح؛ لكن الجثمان الذي نُقل إلى مكان مجهول، والبيان الذي أصدرته المليشيا، كانا يؤكدان الحقيقة الأكثر إيلاماً.

لكن الأكثر إيلاماً مما حدث ذلك النهار كان ما لم يُقل في البيان. رفضت جماعة الحوثي تسليم جثمان أحمد الغزالي لأسرته؛ قالوا إن هناك إجراءات، إن هناك تحقيقات، لكن أهل روحان عرفوا الحقيقة من نظرات الجنود المتجنبة، من التوتر في أصوات القادة، من الصمت المريب الذي خيم على البلدة.

كانوا يحتجزون الجثمان، الجثمان الذي لا يحمل سلاحاً، الذي لا يقاوم، الذي تحول من إنسان إلى مجرد بقايا عضوية؛ وكانوا يشترطون مقابل تسليمه: مبالغ مالية ضخمة، لتغطية علاج مصابيهم، ودية قتلاهم، وكأنهم ينظرون إلى الموت كصفقة

تجارية، وكأن دماء أبنائهم يمكن أن تُباع وتُشترى مثل البضائع في سوق روحان الصغير.

في بيت مجاور، حيث كانت زوجة الغزالي وأطفاله قد لجأوا، كان الصمت هو اللغة الوحيدة؛ الزوجة، امرأة في الخمسين من عمرها، وجهها منحوت من حجر وصبر، كانت تجلس على حصير بال، لا تبكي، لا تئن، فقط تحدق في نقطة ما على الحائط؛ أطفالها، ثلاثة شبان وفتاة، كانوا يتبادلون النظرات، نظرات تحمل كل شيء ولا تحمل شيئاً؛ في عيونهم كان الخوف، والحزن، والغضب المكبوت الذي ينتظر لحظة الانفجار.

وفي الطرف الآخر من البلدة، كان وجهاء روحان وشيوخها يجتمعون في منزل الشيخ محمد النهمي، أكبر شيوخ المنطقة؛ كان الاجتماع ثقيلاً، كالموت الذي حل عليهم فجأة؛ الشيخ محمد، رجل في السبعين من عمره، بلحيته البيضاء وعمامته التي لا تفارق رأسه، كان يجلس في صدر المجلس، يدخن سيجارته الطويلة بصمت.

قال له أحد الحاضرين، رجل خمسيني يرتدي ثوباً بنياً:

- "يا شيخ، هم يريدون مئة ألف ريال، وعندهم مصابين، وعندهم قتلى..؛ قالوا إن أحمد هو اللي بدأ، وهو اللي قتل".

رفع الشيخ محمد عينيه ببطء، ونظر إلى الرجل بنظرة حادة جعلته يصمت فجأة؛ ثم قال بصوت خفيض، لكنه حمل وقع الصخور:

- "وأنا أقول لك: أحمد كان رجلنا؛ طول خمسة أيام ما طلع من بيته، ولا أذى أحد؛ هم جوا إليه، هم حاصروه، هم دخلوا عليه؛ وإذا كان من حقه يدافع عن نفسه؟ وإذا كان من حقه يرد؟"

ساد صمت طويل؛ ثم قال الشيخ بصوت أصبح أكثر انخفاضاً:

- "وإذا كان طالع من بيته وقاتلهم، فهذا شرف؛ وإذا قتل، فهذا قدر؛ لكن اللي ما نقبله، أن يحتجزوا جثمانه؛ الجثمان ما له سلاح، الجثمان ما له صوت؛ إذا كانوا بيخافون من الجثمان، فهذا معناه أنهم يخافون من الموت نفسه".

لم يقل أحد شيئاً، لكن الكلمات كانت قد زرعت بذورها في قلوب كل الحاضرين.

## حين يصبح الجبل شاهدا

في الأيام التالية، بدأت رائحة مقاومة خفيفة تتصاعد من روحان؛ ليس مقاومة مسلحة، بل مقاومة صامتة، مقاومة النظرات التي تطلق كالسهام، والكلمات التي تهمس في الخفاء؛ كان الشباب يتجمعون عند مشارف القرية، ينظرون نحو الطريق المؤدي إلى المدينة، كما لو كانوا ينتظرون شيئاً ما، أو أحداً ما.

لم يعد أحد في روحان ينام هانئاً؛ في كل بيت، كانت الهمسات تتنقل بين الجدران: "أحمد الغزالي مات، لكن روحه ما ماتت"؛ "هو وحده قاتل ثمانية، تخيل لو كانوا اثنين، أو عشرة؟"؛ "اللي

يصبر أسبوع كامل على الحصار، ويطلع ما يموت إلا وهو طالع، هذا ما يموت."

في السوق الصغير، حيث يجتمع الرجال لتبادل الأخبار، كان الكلام يدور حول الحادثة وكأنها أسطورة بدأت تولد؛ كانوا يرددون تفاصيل لم تحدث، وأسماء لم تُذكر، ويزيدون على الحكاية كل يوم شيئاً جديداً؛ لكن الحقيقة، الحقيقة الأعمق، كانت تتعلق بشيء آخر: لقد أيقظت حادثة الغزالي شيئاً كان نائماً في روحان؛ أيقظت الشعور بأن الصبر له حدود، وأن الانكسار ليس قدراً محتماً، وأن رجلاً واحداً يمكنه أن يصنع فرقاً.

في بيت الغزالي المنهار، حيث بقيت الجدران واقفة كأنها شهود على ما حدث، كان الأطفال يلعبون بين الأنقاض، يبحثون عن ألعابهم المدفونة تحت الحجارة؛ كانوا لا يدركون تماماً أن هذا المنزل، الذي لعبوا فيه وضحكوا، قد أصبح قبراً لثمانية رجال، ومعلماً جديداً في ذاكرة القرية.

وفي المساء، حين تبدأ الشمس بالغروب خلف قمم الجبال، وتتحول ألوان السماء إلى درجات من البرتقالي والأرجواني، كان الجيران يمرون أمام المنزل المهدم، يوقفون خطواتهم للحظات، يرفعون أيديهم بالدعاء، ثم يمضون؛ لم يكن أحد يتكلم كثيراً، لكن حركة الشفاه كانت تكفي.

## جبال تهمس

وبينما كان أهل روحان ينتظرون مصير جثمان الغزالي، وفي مكاتب المليشيا في مدينة إب، كانت الأوراق تنتقل بين الأيدي، والأرقام تُحسب بدقة، والمسؤولون يتجادلون حول المبلغ "المناسب" الذي يجب أن تدفعه العائلة مقابل الجثمان المسلوب؛ لم يكن هناك صوت واحد في تلك المكاتب يسأل: "هل هذا عدل؟" أو "هل هذه إنسانية؟" كان السؤال الوحيد يدور حول المقابل المادي، حول التعويض، حول الصفقة.

في قرية روحان، كان الناس يعرفون أن هذا المشهد ليس جديداً، أنه يتكرر في كل مرة، وفي كل مكان، وأن الجثث تصبح سلعة حين تكون السلطة قوية والحق ضعيفاً؛ لكنهم كانوا يعرفون أيضاً شيئاً آخر: أن أحمد الغزالي، بقوته وبسالته، قد قلب المعادلة؛ لقد جعلهم ينظرون إلى أنفسهم بطريقة مختلفة؛ لقد جعلهم يتساءلون: "ما الذي يمكننا فعله نحن أيضاً؟"

خرجت من روحان في تلك الأيام أصوات لم تسمعها إب من قبل؛ أصوات الشباب الذين كانوا يرددون في الأسواق: "الغزالي علمنا إن الواحد يسوى عشرين"؛ أصوات النساء اللواتي كن يقلن لأطفالهن: "تعالوا، احكيلكم عن عمكم أحمد، كيف قاتل ومات رافع الراس"؛ أصوات الجبال التي كانت تردد الصدى: **"لن ننسى، لن نغفر."**

وفي أعلى الجبل، حيث يقف بيت الشيخ محمد النهمي، كان الشيخ ينظر نحو الأفق البعيد، حيث تختفي مدينة إب خلف

السحب؛ كان يفكر في الغزالي، في ذلك الرجل الهادئ الذي لم يرفع صوته يوماً، لكنه رفع سلاحه عندما وجد أن لا خيار آخر؛ كان يفكر في الجثمان المحتجز، وفي الأموال المطلوبة، وفي الظلم الذي يتكرر كل يوم.

أطفأ الشيخ محمد سيجارته وقال في نفسه بصوت خفيض لا يسمعه إلا جدران الغرفة:

- "أحمد، أنت ما مت، أنت صرت جبل؛ وجبال إب ما تموت".

كانت الريح تعبث بستائر النافذة، وتحمل معها من بعيد صوت أذان المغرب من مسجد القرية الصغير؛ كان الصوت ينساب بين البيوت، بين الجدران، بين القلوب، كأنه يذكّر الجميع أن الحياة تستمر، وأن الموت ليس نهاية، وأن الأبطال يظلون أحياء في ذاكرة من يحبونهم.

وفي ليلة اليوم السابع، حين كان القمر ممتلئاً ويسلط ضوءه الفضي على أنقاض منزل الغزالي، رأى أحد الحراس في روحان شيئاً غريباً: ظل رجل يقف بين الحجارة المتناثرة، طويلاً، مستقيم القامة، ينظر نحو السماء كمن يقرأ آية، ثم اختفى كأنه لم يكن؛ ظل الرجل صامتاً طوال الليل، لم يخبر أحداً بما رأى، لكنه في صباح اليوم التالي، وقف في السوق وقال بصوت رخيم:

- "الغزالي ما مات؛ هو في الجبل".

نظر إليه الناس بصمت، لكن الكثيرين منهم أيقنوا في قلوبهم أن الرجل لم يكذب؛ ففي جبال إب، حيث الصخر أبدي، حيث

الريح تحمل الذكريات، حيث كل حجر يحكي قصة، لا يموت الأبطال؛ يظلون هناك، بين القمم، ينظرون إلى الأسفل، ينتظرون اللحظة التي يأتي فيها من يكمل الطريق.

وعندما غادر روحان في ذلك اليوم، كان اسم أحمد صالح الغزالي قد غدا أكثر من مجرد اسم؛ أصبح حكاية تروى للأطفال ليلاً، وأسطورة تتناقلها الأجيال، ونبضاً ينبض في صدور من عرفوه ومن لم يعرفوه؛ لأن في تلك الزوايا النائية من اليمن، حيث تلتقي الأرض بالسماء، حيث تتشابك الحياة والموت، هناك دائماً من يذكرك بأن الإنسان، عندما يختار أن يكون حراً، يصبح جبلاً لا يهزم.

وفي زاوية بعيدة من المدينة، في مبنى حكومي بارد، جلس مسؤول حوثي على مكتبه، ينظر إلى ورقة أمامه؛ كان الورقة تحمل أسماء المصابين والقتلى، وتفاصيل المبالغ المطلوبة؛ رفع عينيه نحو النافذة، ونظر إلى الجبال البعيدة، إلى تلك القمم التي تختبئ خلف الضباب؛ لم يقل شيئاً، لكن أصابعه كانت ترتعش قليلاً وهي تمسك القلم؛ ولكنه يدرك أن ساعة الحساب ستكون ثقيلة عليه.

# رائحة المفقودين

## فنجان على النار

في الثامنة صباحاً، كان فنجان الشاي يغلي على النار في بيت أم أسماء العميسي؛ كانت المرأة العجوز، التي جاوزت الستين، تمسك بملعقة صغيرة وتحرك الشاي في الفنجان بحركات دائرية بطيئة، كمن يوقظ شيئاً نائماً؛ لم تكن تعرف أن هذه الحركة ستصبح طقساً يومياً تتكرر، كالصلاة، دون أن تجيب عن أي سؤال.

في زقاق صنعاء القديم، كان ابن أسماء، الطفل الذي لم يتجاوز السابعة، يجر أمه نحو بائع الحلوى؛ كانت أسماء تضحك، وتمسك بيده بقوة كأنها تخشى أن يطير كالعصفور؛ لم تكن تعلم أن هذه اليد ستفلت منها بعد دقائق، وأن ضحكتها ستتحول إلى صرخة مكتومة خلف زجاج سيارة سوداء.

كانت السيارة واقفة هناك، كما لو كانت تنتظر؛ ليس في مكان بارز، بل في زاوية ظللت فيها واجهة مبنى قديم؛ حين مرت أسماء وابنها، تحرك الزجاج المعتم قليلاً، ثم فُتح الباب.

- "معنا، اختي، بسرعة".

لم تتكلم أسماء؛ لم تسأل؛ كانت اليد التي أمسكت بذراعها، قوية، باردة، كأنها ليست يد إنسان؛ عيناها توسعتا للحظة، ثم اختفت خلف الزجاج.

سمعت صوت ابنها يصرخ: "ماما..؛ ماما"!

كانت آخر كلمة سمعتها منه قبل أن يغلق الباب، وقبل أن تبتلعها الشوارع الملتوية، وقبل أن يصبح صوته مجرد صدى في أذنها، يتكرر كل ليلة حين تغمض عينيها.

في السوق، بقي الطفل واقفاً؛ الحلوى التي اشترتها له أمه سقطت على الأرض، تحولت إلى فتات تحت أقدام المارة؛ ظل ينظر إلى السيارة السوداء التي تختفي خلف الزاوية، وكأن عينيه تحاولان تثبيت ذلك المشهد في ذاكرته قبل أن يضيع.

لم يبكِ؛ ليس في تلك اللحظة؛ البكاء جاء بعد ساعات، عندما عاد إلى البيت ولم يجدها، وعندما رأى جدته تضع فنجاناً آخر على النار، وكأنها تنتظر ضيفة لن تأتي.

## بين جدران تعرف الصمت

معتقل حدة؛ جنوب شرق صنعاء، حيث لا صوت يصل، وحيث الجدران تبتلع الأسماء؛ هناك جلست أسماء في زاوية الزنزانة، ظهرها ملتصق بالجدار، وركبتاها إلى صدرها؛ لم تكن تبكي، لأن البكاء كان قد استنفد طاقته منذ الأيام الأولى؛ كانت تحدق في فراغ، كما لو كانت تحاول قراءة شيء ما في الظلام.

في الزنزانة نفسها، كانت ثلاث نساء أخريات: فاطمة العرولي، في الأربعين، كانت شفتاها تتحركان في همس دائم، صلاة أو دعاء أو عد؛ ونورة، الفتاة العشرينية، كانت ترتجف في زاوية أخرى، وساقاها مثخنتان بكدمات لا تروي قصتها؛ ومروة، المعلمة التي أوقفت في نقطة تفتيش، كانت تنظر إلى السقف، تحاول أن تتذكر شكل طلابها، أسماءهم، أصواتهم.

كان الصمت في الزنزانة ثقيلاً، كثقل الرصاص؛ لكن أحياناً كان يُكسر: بصوت خطوات من الخارج، بصرير مفتاح في باب حديدي، بصوت بكاء من زنزانة مجاورة.

ذات ليلة، سمعن صوتاً مختلفاً؛ صوت امرأة تبكي، لا تكتم بكاءها، وكأنها كانت تريد العالم أن يعرف أنها تبكي؛ كانت فاطمة العرولي تهمس باسم ابنتها، التي لم ترها منذ ثلاث سنوات؛ لم يتكلم أحد؛ كانت النساء ينظرن إلى بعضهن، وعيناهن تقولان كل شيء.

ثم جاء الصباح، ومعه خطوات الحراس؛ فُتح الباب، ودخل الظل؛ ليس رجلاً، بل ظل رجل، وقف هناك، ونظر إلى النساء وكأنهن قطع أثاث؛ ثم مد يده نحو أسماء، لم يقل شيئاً، فقط مد يده، وأمسك بذراعها، وسحبها إلى الخارج.

لم تصرخ أسماء؛ ربما كانت قد فقدت صوتها، أو ربما عرفت أن الصرخة لن تجيب.

خرجت، وتبعتها عيون النساء الثلاث، عيون تحمل كل الأسئلة التي لا تجاب؛ ثم أغلق الباب، وعاد الصمت.

في الطابق الأسفل، حيث الرجال، كان يحيى العيزري يعد الأيام على الجدار؛ عشرة سنوات؛ كان قد دخل هذا المكان وشعره أسود، والآن أصبح رمادياً؛ في الخارج، كان أبناؤه يكبرون، لا يعرفون إن كان أبوه ميتاً أم حياً؛ كان يكتب كل يوم على الجدار، بأظفاره، علامة صغيرة: يوم آخر.

في زنزانة مجاورة، كان محمد قحطان يهمس بكلمات لنفسه، كمن يخاف أن ينسى لغة البشر؛ كان يعرف أن بعض المختطفين فقدوا القدرة على الكلام بعد سنوات من الصمت؛ كان يتحدث مع الجدران، لأن الجدران هي من يستمع هناك.

وفجأة، سمع صوتاً من فتحة صغيرة في الجدار؛ صوت شاب، لم يتجاوز الخامسة والعشرين، كان قد دخل منذ شهرين فقط؛ كان صوته يرتجف:

- "يا عمي، أنت بتسمعني؟"
- "أنا بسمعك، يا ولدي".
- "أنا خايف أنساهم؛ وجه أمي، صوت اختي؛ أنا خايف أنساهم".

نظر يحيى إلى الجدار، ووضع كفه على الحجر البارد:

- "ما تنساهم، يا ولدي؛ قول أسمائهم كل يوم؛ قولها بصوت عال، عشان تفضل في راسك؛ النسيان هو اللي بيموت، مش الجسد".

سمع صوت الشاب وهو يبكي، بكاءً خفيفاً، كبكاء من يريد ألا يسمعه أحد؛ لم يقل شيئاً، فقط ترك البكاء يأخذ وقته.

في زنزانة أخرى، حيث كانت النساء يُحتجزن في الطابق العلوي، كانت أسماء قد عادت؛ عيناها كانتا مفتوحتين، لكنهما فارغتان، كأن شيئاً قد انطفأ خلفهما؛ جلست في زاويتها، وصمتت؛ لم تسألها فاطمة، ولم تسألها نورة، لأن في تلك الأماكن، الأسئلة جروح لا تلتئم.

وفي المساء، سمعن صوت بكاء من زنزانة مجاورة؛ بكاء امرأة أخرى، جديدة، لم تكن تعرف اسمها بعد؛ بكاء لا يتوقف، كأنه كان ينتظر فرصة ليخرج.

في الخارج، في صنعاء، كانت الحياة تمضي؛ الناس يتسوقون، يضحكون، يغضبون، يتصالحون؛ لا يعرفون أن في تحت أقدامهم، في تلك المباني التي تبدو كأي مبنى، عالماً آخر يعيش، ينبض، يئن.

## أماكن لا تظهر على الخريطة

حي صرف؛ شرق صنعاء؛ مبنى لا اسم له، ولا رقم، ولا علامة مميزة؛ مجرد واجهة عادية، كأي منزل في حي فقير؛ لكن خلف الأبواب، كانت الزنازين تنتظر، وكأنها تفتح أبوابها وتغلقها بحسب الحاجة.

في إحدى الزنازين، كانت امرأة شابة، لم تتجاوز الخامسة والعشرين، ترتجف في الظلام؛ كانت تتذكر وجه أمها، صوت أبيها، ضحكة أختها الصغيرة؛ كانت تتذكر كل شيء، وتتمنى أن تنسى كل شيء؛ كانت تحاول أن تسمع صوتاً من الخارج، أي صوت، لكن الصمت كان مطبقاً.

في زنزانة أخرى، كان رجل ستيني، أمضى اثنتي عشرة سنة في الاختفاء؛ كان قد نسي شكل أولاده؛ كان يحاول أن يتذكر، كل يوم، لكن الذاكرة كانت تتلاشى كالضباب؛ كان يهمس بأسماء لا يعرف إن كانت حقيقية أم من وهمه.

وفي مبنى آخر، في مدينة تعز، حيث السماء تميل إلى الزرقة والجبال تحرس المدينة، كان معتقل "مدينة الصالح" يحتضن أكثر من ثلاثمئة مختطف؛ كان إسماعيل الرمادي هناك، ينظر إلى الجدار، حيث خطوط وأسماء وأحلام خدشت الحجر؛ كان يعرف كل خدش، كل كلمة، كل حرف؛ كان قد أمضى ثماني سنوات، رأى فيها أناساً يدخلون ويخرجون، أناساً يموتون، أناساً يفقدون عقولهم.

ذات ليلة، سمع إسماعيل صوتاً من زنزانة مجاورة؛ صوت رجل يبكي كطفل، لا يكتم بكاءه، وكأنه قد وصل إلى حافة الهاوية؛ لم يعرف إسماعيل من هو، لكنه مد يده إلى الجدار، وطرق بخفة ثلاث مرات، إشارة كانوا يستخدمونها بينهم: "أنا هنا؛ لست وحدك".

هدأ البكاء قليلاً، ثم سمع صوتاً خفيضاً: "شكراً".

في محافظة صعدة، حيث الجبال أكثر وعورة، كان سجن النقعة يقبع كوحش حجري؛ أربعمئة معتقل، يعيشون في ظروف تشبه صيدنايا في سوريا، كما يصفها من خرجوا من هناك؛ كان المختطفون ينامون على الأرض، يأكلون ما لا يكفي طيراً، يشربون ماءً مالحاً؛ في إحدى الزنازين، كان رجل يكتب في دفتر صغير أخفاه تحت البلاطة: "اليوم، أنا لا أزال حياً؛ لا أعرف لماذا، لكني لا أزال حياً؛ ربما غداً سأتذكر وجه ابنتي؛ ربما بعد غد، سأتذكر صوت زوجتي".

في صباح اليوم التالي، وجد الحراس الدفتر؛ مزقوه أمام عينيه، وضربوه حتى فقد وعيه؛ لكنه لم يمت؛ كان الموت أسهل، لكنهم كانوا يريدونه حياً، ليتذكر، ليعاني، ليكون دليلاً على أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون بمن يقع في قبضتهم.

وفي المقر الرئيسي، كان الإرهابي عبد الكريم الحوثي وعبد الرب جرفان ومطلق المراني يوقعون الأوراق، ينقلون المختطفين من معتقل إلى آخر، يغيرون الأسماء، يمحون الهويات؛ كانوا يعرفون أسماء النساء اللواتي اغتُصبن، والرجال الذين عُذبوا، والأطفال الذين اختفوا؛ كانوا يعرفون كل شيء، لكنهم كانوا يوقعون وكأن الأسماء مجرد أرقام، وكأن الجثث مجرد قطع في لعبة لا تنتهي.

## فنجان بارد

في منزل أم أسماء العميسي، كان فنجان الشاي يبرد على النار؛ كانت العجوز تحدق في الباب، كأنها تنتظر أن يفتح، وأن تدخل ابنتها وكأن شيئاً لم يكن.

ثلاث سنوات؛ ثلاث سنوات من الانتظار؛ كل صباح، كانت تضع الفنجان على النار، وتحركه بحركات دائرية بطيئة؛ كانت تعرف أن أسماء لن تأتي، لكنها كانت تفعل ذلك لأنها لو توقفت، لو تركته يبرد دون أن تحركه، لكان ذلك اعترافاً بأن أسماء لن تعود.

في أحد الأيام، جاءها رجل من منظمة محلية؛ وقف عند الباب، ينظر إليها، وكان في عينيه ذلك التردد الذي تعرفه جيداً، تردد من يحمل خبراً لا يريد أن ينطق به.
قال لها: "والدتي، نحن نتابع قضية أسماء".
نظرت إليه، ولم تتكلم.
"نحن نحاول؛ لكن الوضع"...
قاطعته؛ صوتها كان خفيضاً، هادئاً، كمن يتحدث عن شيء عادي، عن الطقس مثلاً:

- "أنا ما أبغى حاجة؛ أنا أبغى بس أعرف إذا كانت عايشة ولا ميتة؛ إذا كانت عايشة، بنتظر؛ وإذا كانت ميتة، بدفنها؛ بس أبغى أعرف".

لم يقل الرجل شيئاً؛ وقف هناك، ينظر إلى قدميه، ثم همس: "إن شاء الله، والدتي".
غادر، وتركت العجوز وحدها مع فنجان الشاي البارد، ومع الباب المفتوح، ومع صمت البيت الذي كان يملأ كل زاوية.
في غرفة صغيرة، كان حفيدها، ابن أسماء، يجلس على الأرض، يرسم بالفحم على قطعة ورق؛ كان يرسم سيارة سوداء؛ دائماً سيارة سوداء؛ كان يرسمها مراراً، وكأنه يحاول أن يفهم من كان خلف الزجاج، لماذا أخذت أمه، وإلى أين ذهبت.
خرجت العجوز إلى الشرفة، ونظرت إلى الشارع؛ كان اليوم ٣٠ أغسطس، اليوم العالمي لضحايا الاختفاء القسري؛ كانت تعرف ذلك، لأن الجيران كانوا قد ذكروها صباحاً؛ في الشارع، كان

بعض الناس يتجمعون، يحملون صوراً لأحبائهم المفقودين؛ وقفت العجوز تنظر إليهم، ثم نزلت، وأخذت صورة أسماء من فوق الرف، ونزلت إلى الشارع.

وقفت هناك، تحمل الصورة، تنظر إلى الكاميرات التي تصورها؛ لم تتكلم، فقط نظرت، ونظرت، وكأنها تقول: "أنا هنا؛ أنا أنتظر؛ ابنتي في مكان ما، في معتقل لا تعرفونه، في زنزانة لا ترونها، في مكان يحمل اسماً لا تذكره الأوراق الرسمية؛ أنا هنا، وأنتظر".

في تلك اللحظة، في معتقل حدة، كانت أسماء العميسي تجلس في زاويتها، تنظر إلى الجدار؛ كانت قد خطّت بأظفرها اسم ابنها على الحجر؛ كانت تهمس به، مراراً، وكأنها تخشى أن تنساه، وكأنها تخشى أن ينساها هو.

وفجأة، سمعت صوت خطوات تقترب؛ فُتح الباب، ووقف الرجل هناك، وفي يديه ورقة، وابتسامة باردة على شفتيه:

- "أسماء العميسي، اليوم رايحة في رحلة؛ مكان جديد؛ استعدي".

نظرت إليه؛ لم تتكلم؛ وقفت ببطء، واتبعت الرجل.

في المنزل، كان فنجان الشاي يبرد على النار، وكانت العجوز لم تعد بعد من الشارع؛ وكان الطفل يجلس على الأرض، يرسم سيارة سوداء أخرى، سيارة لا نهاية لها، سيارة لم تعد فيها أمه أبداً.

وفي الغرفة التي كانت تحتضن أسماء، حيث الجدران سوداء والهواء نادر، كان هناك صمت مطبق؛ صمت لا تسمعه آذان العالم، لكنه كان يدوي في قلوب من يعرفون أن هناك، في مكان ما، أناساً ينتظرون، أناساً يختفون، أناساً لا يعودون.

وفي اليوم التالي، عادت العجوز إلى منزلها؛ وضعت الفنجان على النار، وحركت الشاي بحركاتها الدائرية البطيئة؛ كان حفيدها يجلس إلى جوارها، يرسم.

نظرت إليه، وقالت بصوت هادئ:

- "تعال، يا ولدي؛ احكِ لي عن أسمك؛ احكي لي عن وجه أمك".

رفع الطفل عينيه إلى جدته، وصمت قليلاً، ثم قال:

- "ماما كانت بتضحك؛ دايماً بتضحك؛ حتى لما كانت زعلانة، كانت بتضحك".

ابتسمت العجوز، ووضعت يدها على رأس حفيدها.

- "أحسنت، يا ولدي؛ أحسنت؛ لا تنساها؛ لا تنساها أبداً".

وفي الخارج، كانت صنعاء تغط في نومها، والجبال تحرسها، والقمر يطل من خلف السحب؛ وكان هناك، في مكان ما، روح بشرية، لا تزال تتنفس، لا تزال تحلم، لا تزال تنتظر.

وفي مكان آخر، كان قلم حبر جاف يوقع على ورقة، تنقل مجموعة جديدة من الأسماء من معتقل إلى آخر؛ كان القلم

ينزلــق فــوق الــورق، بسرـعة، دون توقــف، دون أن ينظــر إلى الأسماء، وكأنها مجرد أرقام في معادلة لا علاقة لها بالبشر.
لكن فنجان الشاي، على النار، كان لا يزال دافئاً

# مسرحية الظل

**اقرأ**

غرفة بلا نوافذ؛ ضوء أصفر من لمبة واحدة في السقف، خافت كمن ينام ولا يريد أن يستيقظ؛ جدران خرسانية، غير مدهونة، تحتفظ ببرودة الليل حتى في عز النهار؛ على الأرض، بلاط رمادي تكسو طبقة رقيقة من الغبار لم تكن عين تراها، لكن الشيخ عماد كان يشعر بها تحت قدميه، تشبه وطأة شيء رمادي يلتصق بالنعل ولا يزول.

جلس على كرسي خشبي، لا مسند للظهر، الأرجل الأربع تئن قليلاً كلما تحرك ولو قيد أنملة؛ كان جسده يميل إلى اليمين، حيث الشلل الذي ضربه منذ سنوات، كشجرة مالت بفعل ريح لم تتوقف؛ كانت يده اليسرى مرتخية، لا تستطيع الإمساك بشيء؛ أما اليمنى فترتجف قليلاً، كأنها تحاول تذكر معنى الحركة.

وقف الرجل أمامه؛ يرتدي جاكيتاً أسود، لا شارة، لا اسم؛ كلماته مختصرة، جافة، كحجارة صغيرة تُلقى في بئر:

"**اقرأ**".
مدَّ يدَه بورقة مطوية، وضعها على حجر الشيخ؛ ورقة بيضاء، سطورها مكتوبة بخط صغير، مزدحم؛ رفع الشيخ عينيه ببطء، نظر إلى الورقة ثم إلى الرجل؛ كانت عيناه غائرتين، محاطتين بهالات سوداء عميقة كأخاديد الجفاف؛ لم يتكلم، لكن حركة عينيه كانت تقول شيئاً، ربما سؤالاً، ربما استسلاماً.
أدار الرجل ظهره، وخطا خطوتين نحو جهة لا يراها الشيخ، خلف اللمبة، حيث ظل الكاميرا، وحيث الصوت الذي سيأتي بعد قليل.

"**اقرأ؛ كامل؛ وما تقطع**".
رفع الشيخ عماد الورقة بيده اليمنى المرتجفة، مسكها من طرفها، وقربها من عينيه؛ كان النص طويلاً، مكتوباً بخط واضح، كأنه طُبع على ورق، لكنه كان مكتوباً بيد؛ جمل طويلة، أسماء، تفاصيل؛ تفاصيل لم يعرفها من قبل، لم يسمع بها، لم يخطر بباله أنها يمكن أن تنسب إليه.
بدأ يقرأ؛ كان صوته خافتاً، متهدجاً، يتوقف بين الكلمات كما يتوقف سائق في طريق وعرة؛ كأن كل كلمة ثقيلة، تحتاج إلى جهد لإخراجها؛ كانت الجمل تعرج في فمه، وأحياناً يتلعثم في حرف.
في الجهة التي لا يراها، خرج صوت؛ ليس غاضباً، لكنه حازم، كمن يصحح خطأ في ورقة امتحان:

- "من أول الجملة؛ اقرأها مرة ثانية".

أعاد الشيخ؛ نفس الكلمات، نفس التردد، لكنه حاول أن يثبت صوته، أن يجعله أكثر وضوحاً؛ كان يعرف أنهم يريدون تسجيلاً نظيفاً، بلا أخطاء، بلا توقف؛ كان يعرف أن هذا التسجيل سيُبث، وأن الناس سيرونه، وأن كلماته ستصبح حقيقة في عقول من يشاهدون.

أكمل القراءة؛ وصل إلى منتصف النص، ثم توقف؛ كان قد نسي كلمة؛ وقف هناك، عيناه على الورقة، لكن الكلمة لم تعد تظهر، كأنها اختفت من السطر؛ رفع رأسه قليلاً، نحو الظل خلف اللمبة.

"**خلاص..؛ لا أستطيع..؛ أعيدوني على البداية**"...

صمت.

ثم الصوت:

- "موقف؛ مشي نص الجملة، وركز؛ من وين وقفت؟"

نظر الشيخ إلى الورقة، وجد مكانه، وواصل؛ كان صوته قد أصبح أكثر جفافاً، كأنه يقرأ نصاً لا يخصه، وكأنه مجرد أداة تنطق حروفاً لا تعني له شيئاً؛ لكن عينيه، عيناه كانتا تقولان شيئاً آخر؛ كانتا تنظران إلى الورقة، لكنهما كانتا ترى شيئاً بعيداً، ربما منزلاً، ربما وجهاً، ربما صوتاً من زمن قبل هذا الكرسي، قبل هذه الغرفة، قبل هذه الكلمات التي يقرؤها ولا يصدقها.

استمر؛ الكلمات تتدفق، جملة تلو أخرى، تفاصيل عن اجتماعات مزعومة، عن أموال وهمية، عن تنسيق مع جهات لم يلتقِ بها قط؛ كل كلمة كانت تشبه خيطاً يُنسج في رواية لا يد

لـه فيهـا؛ كـان مجـرد ممثـل، لكنـه لا يعـرف الـنص، ولا يعـرف الإخراج، ولا يعرف حتى متى سينتهي المشهد.
عندما انتهى، أسقط الورقة على حجره؛ كان متعباً، أكثر من أي تعب عرفه؛ لم يكن التعب جسدياً فقط، بل شيئاً في صدره، كأن الهواء الذي يستنشقه أصبح أثقل.
سمع صوت الرجل، كأنه يوجه تعليمات لآخر:

- "جيد؛ نمسكه؛ بكرة جلسة ثانية، نفس الكلام، بس نضيف شوية عن السعودي؛ يحتاج يوضح إنه كان بياخد فلوس؛ يعني نزودها في النص، عشان الناس تصدق".

لم يجب الشيخ؛ جلس هناك، على كرسيه الخشبي، ينظر إلى الورقة التي أخذه منها صوت الرجل، ثم أمسك بها الرجل وطواها، ووضعها في جيبه؛ نهض الرجل وخرج دون أن ينظر إليه، وكأن الشيخ لم يكن موجوداً.
بقي الشيخ عماد وحيداً في الغرفة؛ الضوء الأصفر لا يزال خافتاً، يرمي ظلاً طويلاً للكرسي على الأرض؛ كان وطأة الصمت أثقل من وطأة الكلمات التي نطق بها؛ نظر إلى يده اليمنى، التي كانت لا تزال ترتجف، وفتحها وأغلقها ببطء، كمن يحاول تذكر شيء نسيه.
من بعيد، من خلف الجدار، سمع صوتاً خفيضاً؛ صوت رجل آخر، لم يكن يعرفه؛ كان يهمس بشيء، ثم صمت؛ ثم سمع صوتاً آخر، مثل استفهام، ثم ضحكة مكتومة.

أغلق الشيخ عينيه؛ لم يعد يرى الغرفة، ولا الضوء، ولا الورقة؛ كان يحاول أن يتذكر صوتاً آخر، صوتاً من قبل كل هذا؛ صوت حفيد ربما، أو صوت زوجته وهي تناديه؛ لكن الذاكرة كانت ضبابية، كأنها ابتعدت مع كل جملة قرأها، مع كل كلمة قالها.

في الغرفة المجاورة، كانوا يضبطون الكاميرا لجلسة أخرى؛ أحدهم كان يسأل:

- "هل نصوره مع الكرسي نفسه، ولا نغيره؟"
- "نفس الكرسي؛ عشان التتابع؛ المهم نضبط الضوء شوي، عشان يبان الشيخ تعبان؛ الناس لازم تحس إنه هو اللي تعب من كترة الاعتراف".

لم يسمع الشيخ هذه الكلمات؛ لكنه سمع صوت باب يُفتح، ثم خطوات تقترب، ثم صوت الحارس الذي يعرفه الآن:

- "خلاص، يلا، بكرة تصوير ثاني؛ اليوم انتهى".

نهض بصعوبة، دعم نفسه بيده اليمنى على ظهر الكرسي، ثم وقف؛ أخذ خطوة، ثم أخرى، نحو الباب؛ كان يمشي ببطء، يجر قدمه اليسرى قليلاً، وكأنه يحمل جسداً ليس جسده.

خرج من الغرفة إلى ممر ضيق؛ الجدران هناك أيضاً خرسانية، والضوء في السقف قوي لكنه بارد؛ مر بجانب غرفة أخرى، كان بابها نصف مفتوح؛ نظر داخلها دون أن يقصد، فرأى رجلاً آخر يجلس على كرسي مماثل، وورقة في يده، وكاميرا في الجهة المقابلة؛ كان الرجل يقرأ بصوت عالٍ، متوقفاً، وكأنه يحاول أن يتذكر كلمة نسيها.

لم يتوقف الشيخ؛ واصل طريقه نحو الزنزانة الصغيرة التي أصبحت غرفته.

في تلك الزنزانة، جلس على حافة فراشه، ينظر إلى الجدار المقابل؛ كان الجدار يحمل أثراً قديماً، خدشاً في الطلاء، ربما خطه سجين قبله، ربما كان يحاول كتابة اسمه أو عد الأيام؛ مد الشيخ يده، ولمس الخدش بأطراف أصابعه، كأنه يحاول قراءة ما كُتب بلغة اللمس.

ثم سمع صوتاً من الزنزانة المجاورة؛ صوت خفيض، متردد، كمن يحاول أن يتأكد أن هناك أحداً يسمعه:

- "عمي..؛ إيش بيعملوا هنا؟"

صمت الشيخ للحظة؛ كان الصوت صوت رجل، لكنه كان كصوت طفل يخاف من الظلام.

ثم قال الشيخ، بصوته المتعب، لكنه كان أكثر وضوحاً مما كان عليه أثناء القراءة:

- "إذا قالوا لك اقرأ..؛ لا تنسى اسمك".

وقف الصوت من الجانب الآخر، وكأن الكلمات ثقيلة على من يسمعها؛ ثم قال الشيخ، بصوت أخفض:

- "وإذا ضاع منك..؛ قوله بصوت عالٍ، عشان ما يضيع".

لم يعد الصوت؛ لكن الشيخ ظل هناك، يده على الجدار، وأصابعه على الخدش القديم؛ كان يسمع من بعيد، من مكان لا يعرفه، صوت محرك كاميرا يُعاد تشغيله، وصوت رجل يقول:

- "من البداية..؛ جهزوا".

وفي الخارج، في مكان آخر، حيث لا يعلم الشيخ، كانت شاشة تلفاز تعرض صوراً لوجوه لا تعرف أسماءها، وكلمات يقرؤها آخرون لا يعرفون حقيقتها؛ لكن الشيخ لم يكن يرى ذلك؛ كان يرى فقط الجدار أمامه، والخدش الذي لم يعرف من خطه، والصوت الذي كان لا يزال يتردد في أذنيه:

"إذا قالوا لك اقرأ..؛ لا تنسى اسمك".

وفي اليوم التالي، فُتح باب الزنزانة، ووقف الحارس هناك، ونظر إلى الشيخ بعينين لا تعبران عن شيء:

- "يلا؛ جلسة جديدة؛ النص اتغير شوي؛ بس سهلة؛ بتقرأها مرة وحدة، ونخلص".

نهض الشيخ ببطء؛ نظر إلى الجدار للمرة الأخيرة، حيث الخدش لا يزال هناك، حيث لا يزال الصوت يتردد في ذهنه؛ ثم مشى- نحو الباب، وخطا خطوته الأولى في ممر جديد، نحو كرسي جديد، وورقة جديدة، وكلمات جديدة لا تعنيه.

لكنه كان يعرف شيئاً: أن اسمه، اسمه الحقيقي، لم يكن مكتوباً في تلك الورقة؛ وكان يعرف أن كل كلمة يقولها هناك، لا تمحوا كلمة واحدة قالها يوماً بحرية

# ثلاث رصاصات على طريق المدرسة

## قبل أن يسقط الظل

في مدينة تعز، حيث الجبال تحاصر الأفق والبيوت تتسلق التلال كعناقيد عنب حجرية، كان الصباح يتسلل بهدوء من بين فجوات المباني المثقوبة بالرصاص؛ كان اليوم خامس أبريل، والسماء صافية كأنها لا تعلم شيئاً عما سيحدث تحت ظلها.

استيقظ إبراهيم جلال أمين على صوت أمه تناديه من المطبخ؛ كان الرابعة عشرة، طويلاً ونحيلاً، بشعر أسود كثيف ينسدل على جبينه كلما نسي أن يرفعه؛ كان وجهه يحمل شيئاً من ملامح الطفولة المتبقية، وشيئاً من ملامح الرجل القادم، مزيجاً لا يلبث طويلاً.

- "إبراهيم، قوم؛ الفطور بيبرد".

نهض من فراشه، ومد يده إلى الرف حيث حقيبته الزرقاء، التي تآكل طرفها السفلي من كثرة الاستعمال؛ فتحها، وتفقد محتوياتها كعادة كل صباح: قلم رصاص واحد، ممحاة، دفتر صغير، وعلبة أقلام ملونة كان قد اشتراها قبل أسبوعين لتلوين خريطة في حصة الجغرافيا، لكنه لم يكملها بعد.

في المطبخ، كانت أمه تحضر الفطور؛ امرأة في الأربعين، وجهها يحمل تجاعيد مبكرة من سنوات القلق، وعيناها تحملان إرهاقاً لا يزول؛ كان أبوه قد غادر قبل الفجر إلى عمله كبائع خضار في

سوق المدينة، حيث يقضي اليوم واقفاً تحت الشمس، يبيع الطماطم والبصل لمن تبقى في المدينة من سكان.
أكل إبراهيم فطوره بصمت، وهو ينظر من النافذة إلى الشارع؛ في الخارج، كان الحي يفيق ببطء: بائع الخبز يدفع عربته، مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة في الزقاق، امرأة تعلق الغسيل على سطح منزلها؛ كل شيء عادي، كل شيء كما كان أمس، وكما سيكون غداً.
خرج إبراهيم من المنزل، والتقى بشقيقته عند البوابة؛ كانت أصغر منه بسنتين، تحمل حقيبتها الوردية الصغيرة، وتنظر إلى الأرض بين الحين والآخر بحثاً عن حصى لامعة؛ مشيا معاً في الشارع الضيق، يتفاديا الحفر التي خلفتها القذائف في الطريق، ويمران بجوار الجدار الذي لا تزال عليه آثار رصاص من معركة قبل سنوات.
كانت مدرسته على بعد عشر دقائق سيراً؛ في الطريق، التقى ببعض زملائه، وتبادلوا التحيات والنكات؛ أحدهم، صديقه سامي، أخبره نكتة عن معلم الرياضيات، فضحك إبراهيم حتى كاد يسقط عن قدميه؛ كان ضحكه عالياً، صافياً، كصوت الماء يتدفق في جدول.

- "وش ذا الضحك؟" سألته شقيقته، وهي تركض خلفه.
- "شيء ما راح تفهميه، صغيرة." قال وهو يبتسم.

كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً، وألقت بظلالها الطويلة على الرصيف؛ مشى إبراهيم بخطوات واثقة، حقيبته الزرقاء على

كتفه الأيسر، وأخته خلفه بخطوات قليلة؛ لم ينظر إلى الأعلى، لم يرَ النافذة المكسورة في المبنى المهجور على بعد مئات الأمتار، لم يرَ الظل الذي تحرك خلفها.

## الظل في النافذة

في الطابق الثاني من المبنى المهجور، حيث كانت محطة وقود ذات يوم، كان الرجل جالساً خلف كومة من الأكياس الرملية؛ لم يكن يرتدي زياً عسكرياً، بل سروالاً رمادياً وقميصاً بنياً، كأي رجل في المدينة؛ لكن بندقيته، القناصة الطويلة الموضوعة على حافة النافذة، كانت تكشف عن حقيقة أخرى.

كان اسمه صادق، أو ربما هذا الاسم الذي اختاره لنفسه منذ سنوات؛ لا أحد في المبنى يعرف اسمه الحقيقي، ولا أحد يسأل؛ كان هناك منذ ثلاثة أيام، ينتظر الأوامر التي تأتي عبر جهاز اتصال صغير موضوع في جيبه.

كان منظاره يمرر ببطء فوق الشارع، يمسح، يبحث، ينتظر؛ رأى بائع الخبز، ورأى الأطفال يلعبون الكرة، ورأى امرأة تعلق الغسيل؛ كلهم أهداف محتملة، لكنه كان ينتظر شيئاً آخر، شيء محدداً؛ الأوامر قالت: "أي حركة غير عادية، أي تجمع، أي شيء يمكن أن يكون استعداداً لهجوم".

لكن لم يكن هناك شيء غير عادي؛ كان الشارع هادئاً، كهادئة تعز في أي صباح؛ ثم رأى الطفل.

طفل يمشي بخطوات واثقة، حقيبة زرقاء على كتفه، وخلفه طفلة أصغر تركض بين الحين والآخر؛ كانا يضحكان، وكأن

الحرب لم تكن هنا، وكأن الرصاص لم يكن يخترق صدور الناس كل يوم، وكأن الموت لم يكن يتربص بهم في كل زاوية.
وضع عبده الحوثي إصبعه على الزناد؛ لم يكن متأكداً من السبب؛ ربما كان الطفل قريباً جداً من خط المواجهة، ربما كان من الممكن أن يكون عيناً للمقاومة، ربما..؛ لكنه كان يعرف، في أعماقه، أن الطفل لا يحمل سلاحاً، وأن حقيبته الزرقاء لا تخبئ سوى دفاتر وأقلاماً.
نظر إلى يمينه، حيث كان رجل آخر يراقب الشارع بمنظار آخر؛ صافحه الرجل برأسه إشارة: "أطلق".
ضغط عبده الحوثي على الزناد.
في الشارع، لم يسمع إبراهيم شيئاً؛ لكنه شعر بدفعة في صدره، كأن يداً ضخمة ضربته بقوة؛ نظر إلى أسفل، ورأى بقعة حمراء تتسع على قميصه الأبيض؛ حاول أن يتنفس، لكن الهواء لم يعد يدخل إلى رئتيه؛ سقطت حقيبته الزرقاء من كتفه، وسقط هو على جانبه الأيسر، ووجهه إلى الرصيف.
من بعيد، في الطابق الثاني، نظر عبده الحوثي إلى المشهد عبر منظاره؛ رأى الحقيبة الزرقاء على الأرض، ورأى الجسد الصغير، ورأى الطفلة التي كانت تقف هناك، جامدة، ثم بدأت تصرخ؛ أمسك بندقيته بسرعة، وانسحب من النافذة، واختفى في ظلال المبنى.
كانت يداه ترتجفان؛ لم يكن هذا أول قنص له، لكنه كان أول طفل؛ جلس على الأرض، وظهره إلى الجدار، وأغمض عينيه؛

كان يسمع صرخة الطفلة تتردد في أذنيه، كأنها لا تريد أن تتوقف.
فجأة، اهتز جهاز الاتصال في جيبه؛ التقطه، وسمع صوتاً خفيضاً:

- "أحسنت؛ ارجع إلى القاعدة؛ غداً مهمة جديدة".

أطفأ الجهاز، وقف، وخرج من الغرفة دون أن ينظر إلى الوراء؛ في الخارج، كان الناس يتجمعون حول الجثة الصغيرة، وكانت صرخات الأم قد بدأت تصل إلى السماء، وكانت شقيقته لا تزال واقفة في مكانها، تنظر إلى الحقيبة الزرقاء، ولا تستطيع أن ترفع عينيها عنها.

## انتظار غير المجهول

في المستشفى، حاول الأطباء لمدة نصف ساعة إنعاش القلب؛ لكن الرصاصة كانت قد اخترقت القلب مباشرة، كما لو كانت تعرف طريقها إليه؛ رفع الطبيب يديه، ونظر إلى زملائه، وهز رأسه؛ كان وجهه شاحباً، ليس من التعب، بل من شيء آخر، شيء يشبه الخوف من كثرة ما رأى.
في غرفة الانتظار، كان الأب قد وصل، وقف أمام الباب المغلق، وعيناه جامدتان؛ لم يتكلم، لم يسأل، فقط وقف هناك كمن تحول إلى تمثال؛ عندما خرج الطبيب وقال له: "لقد حاولنا كل ما في وسعنا..." لم يتحرك الأب، ظل واقفاً، ينظر إلى الطبيب وكأنه يتحدث بلغة لا يفهمها.

ثـم انهـارت الأم؛ سـقطت عـلى الأرض، وهي تصرـخ: "ابـني..؛ إبـراهيم..؛ إبـراهيم..." كانـت تكـرر اسـمه مـراراً، وكأنهـا تحـاول استدعاءه مـن حيث ذهـب؛ كان الصـوت يخـرج مـن أعماقهـا، صوتاً لا يشبه صوتها، صوتاً كمن يبكي من مكان لا يصل إليه أحد.

أما شـقيقته الصـغرى، فكانـت تجلس في زاوية غرفـة الانتظـار، تحتضـن حقيبتهـا الورديـة، ولا تـبكي؛ كانـت تحـدق في الفـراغ، وعيناها واسعتان، كأنها تنظر إلى شيء لا يراه الآخرون؛ حاولت إحـدى الممرضـات أن تحتضـنها، لكنهـا لـم تتفاعـل، وكأنهـا أصـبحت في مكان آخـر، بعيـداً عـن هـذا العـالم حيـث الأخ لا يسقط على الرصيف.

في تلك الليلة، عادت الأسرة إلى المنزل دون إبراهيم؛ في غرفته، كـان فراشـه لا يـزال غـير مرتـب، وقلمـه لا يـزال عـلى الطاولـة، وصـورته للطـائرة الورقيـة لا تـزال معلقـة عـلى الحـائط؛ جلسـت الأم على حافة الفراش، ووضعت يدها على الوسادة، وهمست:

- "إلى السماء، يا ولدي".

وفي الجانـب الآخـر مـن المدينـة، في قاعـدة صـغيرة خلـف جبـل، كان عبده الحوثي يجلس في غرفة مظلمة، ينظر إلى يديه؛ كانت لا تـزال ترتجفان؛ كان يسـمع صرخـة الطفلة في أذنيه، صرخـة لا تريد أن تتوقف.

دخل ضابط، رمى له كيساً من الخبز على الطاولة، وقال:

- "كل؛ بكرة عندك مهمة جديدة؛ منطقة أخرى".

نظر عبده الحوثي إلى الكيس، ثم إلى الضابط، وقال بصوت خفيض:

- "الطفل..؛ لماذا...؟"

قاطعه الضابط بسرعة:

- "الأوامر؛ لا تسأل".

خرج الضابط، وترك عبده الحوثي وحيداً في الغرفة؛ ظلّ ينظر إلى يديه، وكانت لا تزال ترتجف؛ في الخارج، كانت تعز تغط في نومها، لكن الصرخة كانت لا تزال في أذنيه، لا تريد أن تتوقف، لا تريد أن تموت.

## المقعد الفارغ

بعد ثلاثة أيام، عاد التلاميذ إلى مدرسة إبراهيم؛ كان الدوام قد استؤنف، لكن الفصول كانت هادئة، والأصوات خافتة، وكأن الحزن قد استقر في كل زاوية؛ في الفصل الذي كان يدرس فيه، كان مقعده فارغاً؛ حقيبته الزرقاء، التي أعادها أحد زملائه إلى المدرسة، كانت موضوعة على المقعد، كأنها تنتظر عودة صاحبه.

وقف المعلم أمام الفصل، ونظر إلى التلاميذ الذين كانوا ينظرون إلى المقعد الفارغ؛ كان يريد أن يقول شيئاً، لكنه لم يجد كلمات؛ ثم قال بصوت خفيض:

- "إبراهيم..؛ كان طالباً جيداً؛ كان يحلم بأن يصبح طياراً؛ لكنه لن يكون طياراً الآن".

توقف، وابتلع ريقه:

- "لكننا..؛ نحن سنتذكره؛ سنتذكر أنه كان هنا، وأنه كان يضحك، وأنه كان يدرس، وأنه كان يحمل حقيبته الزرقاء كل صباح؛ هذا كل ما في وسعنا فعله".

في الصف الخلفي، جلست شقيقته على مقعد، لكنها لم تكن تنظر إلى اللوح، كانت تنظر إلى المقعد الفارغ حيث كان أخوها يجلس كل يوم؛ كانت لا تزال تحمل حقيبتها الوردية، ولا تزال لا تبكي؛ كان هناك شيء في عينيها، شيء أعمق من الدموع، شيء يشبه المعرفة التي لا تأتي بالسن، معرفة أن العالم يمكن أن يأخذ ما تحب في لحظة، دون سبب، دون تحذير، دون عدالة.

في الخارج، كانت تعز لا تزال تحت الحصار، والقناصة لا يزالون في أماكنهم، والأطفال لا يزالون يذهبون إلى المدارس وقلوبهم ترتجف؛ لكن في ذلك الفصل الصغير، كان هناك شيء مختلف، كان هناك أثر لطفل لم يمت تماماً، لأنه ظل حياً في ذاكرة من عرفوه، وفي صوت المعلم الذي روى قصته، وفي الحقيبة الزرقاء التي بقيت شاهدة.

وعندما انتهى اليوم الدراسي، خرجت الطفلة من المدرسة وحدها؛ مشت في الطريق نفسه، مرت بجوار المكان نفسه، حيث بقعة الدم كانت قد اختفت، لكن الأثر كان لا يزال هناك في عينيها، لا يمحى؛ وقفت لحظة، ونظرت إلى الرصيف، ثم رفعت رأسها نحو النافذة المكسورة في المبنى المهجور، ونظرت إليها طويلاً، كما لو كانت تحاول أن ترى ما لا تراه العيون.

ثم مشت إلى المنزل، وكانت السماء فوقها صافية، لا تكترث لأحد.

في تلك الليلة، جلست الأم في غرفة ابنها مرة أخرى، ونظرت إلى الصورة التي رسمها للطائرة الورقية، وكتب تحتها: "إلى السماء"؛ جلست طويلاً، ثم همست:

- "غداً، سأذهب إلى المدرسة؛ سأجلس على مقعده؛ سأشعر بأنه لا يزال هناك".

وفي مكان آخر، في غرفة مظلمة، كان عبده الحوثي يحاول النوم؛ لكن صرخة الطفلة كانت لا تزال في أذنيه، وكانت لا تريد أن تتوقف؛ مد يده إلى جهاز الاتصال الصغير، وأطفأه، ووضع رأسه بين يديه.

في الخارج، كانت تعز تنام، والجبال تحرسها، والرصاص ينتظر صباحاً جديداً.

# الزنزانة رقم سبعة

## اختفاء

في صباح ذلك اليوم، كان الخبز لا يزال دافئاً في كيسه الورقي حين سقط على تراب حي الشرية؛ لم يره أحد يسقط، لكن فتاته بقيت هناك، تلتصق بالغبار، تتحول مع الوقت إلى شيء لا يشبه الخبز.

خرج حسين من منزله كعادته، خطواته السريعة تعرف الطريق إلى المخبز؛ كان في الرابعة عشرة، طويلاً ونحيلاً، ويده اليمنى تدفع خصلة شعره عن جبينه كلما نسي أن يرفعها؛ لم يكن يعلم أن عودته ستتأخر، ولا أنه لن يعود إلى ذلك البيت أبداً بنفس الشكل.

في المنزل، كانت والدته تعد الموائد؛ المائدة نفسها التي أعدتها كل صباح منذ أن تزوجت، ونفس الأطباق، ونفس ترتيبها؛ لكنها اليوم ستظل هناك ساعات، والنار تحت الغلاية ستبرد، والخبز الذي اشتراه ابنها سيظل على التراب في نهاية الزقاق، وستنتظر هي.

عندما لم يعد، خرجت إلى الشارع؛ وقفت تنظر في كل اتجاه، والهواء في ذلك الصباح كان بارداً، يتسلل تحت ثوبها كما تتسلل

الشكوك؛ سألت جيرانها، وعيونها لا تثبت على وجه واحد، بل تتنقل كمن يبحث عن شيء ضائع بين الوجوه.
لم تجده.
عادت إلى المنزل، وأغلقت الباب خلفها، ووقفت في الدهليز؛ لم تبكِ بعد؛ كان هناك شيء في صدرها يمنع البكاء، شيء أثقل من الدموع، شيء لا يجد مخرجاً؛ جلست على الأرض، ويداها على حجرها، والغلاية لا تزال على النار، والمائدة لا تزال منتظرة.
في تلك اللحظة، في مكان لا تعرفه، كانت سيارة تتجه شمالاً؛ خلف زجاجها المعتم، كان صبي يجلس بين رجلين، لا يرى شيئاً، لا يعرف أين يذهب، ولا يعرف لماذا؛ كان يحاول أن يتذكر آخر شيء قاله لأمه قبل أن يغادر، لكن الصور كانت تهتز في ذهنه كمرآة مكسورة؛ لم يسمع إلا صوت المحرك، وكان يظن أن هذا مجرد كابوس، وأنه سيستيقظ قريباً على صوت أمه تناديه من المطبخ.
لكنه لم يستيقظ.

## سنوات

الزنزانة رقم سبعة؛ هذا ما كان يعرفه عنها؛ جدران خرسانية، لا نافذة، باب حديدي بفتحة صغيرة تسمح بدخول الضوء ببخل، وفراش رقيق على أرضية باردة؛ لا شيء آخر.
الأيام الأولى كانت الأصعب؛ كان يخدش الجدار بظفره كل صباح، يحاول أن يحصي الأيام التي مضت؛ لكن عدد الخدوش سرعان ما أصبح مربكاً، ثم توقف العد؛ في الظلام، لم يكن

الفرق بين يوم وآخر واضحاً؛ كان الضوء يطفأ ويُضاء، ويأتي الطعام ويُرفع، ويعود الحراس ويغادرون، لكن لا شيء يتغير.
تعلم أن ينام في أي وقت، وأن يستيقظ دون أن يدري كم نام؛ تعلم أن يأكل بسرعة قبل أن يسحبوا الطبق، وأن يشرب من الصنبور دون أن يتوقف لأنه لا يعرف متى سيُغلق الماء مرة أخرى.
في البداية كان يسمع أصواتاً من زنازين أخرى، أصوات بكاء، أصوات صراخ، أحياناً أصوات ضحك مجنونة كضحك من فقد كل شيء؛ ثم تعلم أيضاً ألا يسمعها.

جاء الحراس ليلاً أحياناً؛ كانوا يسألونه أسئلة لم يفهمها: أسماء لا يعرفها، أماكن لم يزرها، أناس لم يلتقِ بهم قط؛ كان يكرر: "أنا لا أعرف." وكانوا يعيدون الأسئلة، ثم يغادرون.
مرة، بعد سنوات، استيقظ فلم يعد قادراً على تحريك ساقه اليسرى؛ ظن أنها نامت، انتظر دقائق، ثم ساعات، ثم أياماً، ولم تعد تستجيب؛ ثم بدأت يده اليسرى تتبعه، ثم وجهه، ثم نصف جسده كله أصبح ثقيلاً،

كأنـه يحمـل حجـارة لا يراهـا، لا يفهـم مصـدرها، لا يسـتطيع التخلص منها.

لم يخبر أحداً؛ لم يكن هناك من يخبره؛ فقط ظل هناك، جالساً على فراشه، ينظر إلى الجدار، ويحاول أن يتذكر كيف كان يشعر عندما كانت قدماه تطيعانه.

في الخارج، كانت صنعاء تمضي؛ أسواقها تفتح وتغلق، وأطفالها يكبرون، وشوارعها تبتلع الآلاف؛ كان بضع مئات من الأمتار تفصله عن المدينة التي لا تعرف به شيئاً، لكنها كانت كعالم آخر، لا يلمسه، ولا يمسه.

أحياناً، كان يسمع من خلف الباب صوت حراس يتحدثون عن الطقس، عن المباريات، عن أكلات يحضرونها في بيوتهم؛ كانت أصواتهم عادية جداً، كأنهم يتحدثون في مطعم أو في شارع، وليس على بعد خطوات من رجل لا يستطيع النهوض؛ كان يستمع إليهم، ويتساءل عما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن منزل في البيضاء، عن أم تنتظر، عن خبز سقط على التراب منذ سنوات بعيدة.

## الهاتف

بعد تسع سنوات، جاءوه ذات يوم وقالوا له: "اتصل".

كان الهاتف صغيراً، أسود، يحمل أثر أيدي كثيرة استخدمته قبله؛ نظر إليه، ثم إلى الحارس، ولم يفهم ما يريده منه؛ كان قد نسي تقريباً كيف تعمل الهواتف.

قال الحارس بصوت جاف: "اتصل بأهلك؛ لديك دقيقتان".

أمسك الهاتف بيده اليمنى، اليد التي لا تزال تستجيب، وبطء غير طبيعي طلب الرقم الذي كان يحلم به كل ليلة لسنوات؛ الرقم الذي كان يهمسه في الظلام كدعاء، كاسم مقدس، كشيء يمنعه من النسيان.

رن الهاتف في منزل بعيد.

كانت والدته جالسة في غرفة المعيشة، تنظر إلى التلفاز الصامت؛ لم يكن يعمل، لكنها كانت تنظر إليه؛ ربما كانت تفكر في شيء ما، أو ربما كانت لا تفكر في أي شيء؛ رن الهاتف، واستغرق الأمر منها لحظة لتلتقطه.

- "ألو...؟"
- "أمي"...

توقفت؛ لم تستطع الكلام؛ كان الصوت، صوت ابنها، لكنه مختلف؛ كان خافتاً، مبحوحاً، كمن نسي كيف يتحدث بصوت عال؛ انتظرت، والهاتف يرتجف في يدها.

- "أمي..؛ أنا حسين".

قالت بصوت لا يشبه صوتها:

- "أين أنت؟ أين كنت طوال هذه السنوات؟"
- "في صنعاء؛ في سجن حدّة".

صمت طويل؛ ثم قالت، وكلماتها كانت ثقيلة كأنها تنطق بحجر:

- "هل أنت بخير؟"

لم يجب؛ كان الهواء في الطرف الآخر ثقيلاً، كأنه يحاول أن يتنفس ولا يستطيع؛ ثم قال:

- "أمي..؛ أنا لا أستطيع المشي".
- "ماذا يعني؟"
- "نصف جسدي لا يتحرك..؛ لا أعرف متى حدث؛ لكنني لم أعد أستطيع النهوض".

أغلقت عينيها؛ كانت الدموع تتسرب من تحت جفونها، لكنها لم ترفع صوتها؛ كانت تريد أن تصرخ، أن تنهار، أن تسقط على الأرض وتكسر كل شيء؛ لكنها لم تفعل؛ قالت بصوت هادئ، هادئ جداً لدرجة أن الكلمات بدت كالهمس:

- "سآتي لأخذك؛ سأخبر الجميع؛ سأصرخ حتى يسمعوني".

لم يقل شيئاً؛ كان يعرف أن الأبواب لا تفتح بهذا السهولة، وأن الصراخ لا يصل إلى هنا.

- "الوقت انتهى." قال الحارس من خلفه.
- "أمي..؛ علي الذهاب".
- "حسين"...

لكن الخط انقطع.

وقفت هناك، والهاتف لا يزال في يدها، والصوت الذي سمعته كان لا يزال في أذنيها، ولن يغادر.

## الانتظار الأخير

بعد المكالمة، تغير كل شيء ولم يتغير شيء؛ عادت الأم إلى طقوسها القديمة، لكنها أصبحت أكثر إلحاحاً؛ كانت تذهب إلى السوق، تسأل الناس، تتصل بأي رقم يمكن أن يوصلها إلى أحد؛

لم تجد سبيلاً؛ السجن كان مغلقاً، والأبواب كانت تفتح لمن يدفع، ولم يكن لديها ما تدفعه.

أما هو، فعاد إلى الزنزانة؛ لكن شيئاً تغير داخله؛ كان يعرف الآن أنهم لا يزالون هناك، في انتظاره، وأن صوته قد وصل إليهم؛ كان يعرف أيضاً أن نصف جسده لن يعود أبداً إلى ما كان عليه، وأن الأيام التي مضت لا يمكن استرجاعها.

كان يفكر أحياناً في حي الشرية، في الشارع الذي مشى فيه كل يوم، في المخبز الذي اشترى منه الخبز، في يد أمه وهي تضع الفطور؛ كان يحاول أن يتذكر شكل الطريق، رائحة المنزل، صوت أخته وهي تضحك؛ لكن التفاصيل كانت تتلاشى، كأنها تذوب في الظلام مع مرور السنوات.

ذات ليلة، سمع صوتاً من الزنزانة المجاورة؛ صوت شاب، لم يتجاوز الخامسة عشرة، يسأل بصوت خائف:

- "عمي..؛ أنت من وين؟"
- "من البيضاء".
- "أنا من إب؛ ما أدري ليش جابوني هنا".

صمت حسين؛ كان يعرف ذلك الشعور؛ كان يعرف أن الشاب لا يفهم لماذا هو هنا، وأنه سيظل سنوات يتساءل، ولن يجد جواباً.

قال بصوت خفيض:

- "تذكر اسم أمك؛ قوله كل يوم؛ لا تنساه".
- "ليش؟"

- "لأن النسيان أسوأ من السجن".

لم يجب الشاب؛ لكن حسين سمع بعد دقائق صوتاً خفيفاً، كأنه همس، كأنه يكرر اسماً لا يريد أن يضعه.

في الصباح، أخذوا الشاب من زنزانته، ولم يره مرة أخرى؛ لكن كلماته ظلت في أذنه: "من إب؛ ما أدري ليش جابوني هنا".

في الخارج، كانت الحرب تمضي؛ الناس تغادر وتبقى، وتولد وتموت؛ لا أحد يتذكر حسين ولا غيره؛ لكن هناك، في زنزانة صغيرة، كان رجل يعرف اسم أمه، ويعرف لون خبز الصباح في حي الشرية، ويعرف أن شخصاً ما في مكان آخر ينتظره.

وفي المنزل البعيد، كانت والدته تضع كل صباح غلاية على النار، وتترك فنجاناً جانباً، وكأن من يشربه سيأتي ذات يوم؛ لم تكن تعرف إن كان سيأتي، لكنها كانت تعرف أن الانتظار هو كل ما تبقى لها.

وفي أحد الأيام، جاءتها رسالة؛ لم تكن من حسين، بل من منظمة حقوقية قالت إنها تعرف قضيته؛ قرأت الرسالة مرتين، ثم جلست على الأرض، والورقة في يدها، ونظرت إلى الجدار.

لم تبكِ؛ ربما كانت قد استنفدت كل دموعها في السنوات الماضية؛ فقط جلست هناك، تنظر إلى الجدار، وتفكر في الابن الذي كان يعود كل صباح محملاً بالخبز، وفي الطريق الذي لن يعود إليه يوماً.

في الزنزانة رقم سبعة، كان حسين جالساً على فراشه، ينظر إلى الجدار المقابل؛ كان يحاول أن يتذكر شكل الشارع، صوت أمه تناديه، لكن التفاصيل كانت تتباعد كالسحب في يوم غائم.
كان يعرف أنه لن يخرج قريباً؛ لكنه كان يعرف أيضاً أنه سيتذكر اسمها كل صباح، وأن ذلك سيبقيه حياً، حتى لو لم يعد جسده قادراً على الوقوف

# إبرة لا تعرف الرحمة

## تعالوا استلموا ولدكم

في مساء السبت، كان الهواء في قرية صوير بارداً يحمل رائحة التراب المبلل؛

كانت الأم تجلس في غرفة المعيشة، تنظر إلى الباب المفتوح على مصراعيه، كما كانت تفعل كل يوم منذ واحد وعشرين يوماً؛

كان زوجها نائماً في الغرفة المجاورة، ونفسه الثقيل يملأ البيت بصوت لا يطاق؛

كانت تسمعه، لكنها لم تعد تنتبه له؛ كان هناك شيء آخر في أذنها، شيء يشبه الصمت، صمت ابنها الذي لم يعد يأتي.

الثلاثاء الماضي، وفي اليوم العاشر من مارس، خرج يحيى من المنزل باكراً؛ كان في العشرينيات من عمره، طويلاً، بشعر أسود كثيف وعينين تشبهان عينيها؛ قال لها: "أمي، بروح الجوف، راجع بكرة." لم تسأل لماذا، لم تسأل متى سيعود بالضبط، فقط قالت: "خلي بالك على حالك." ثم غاب، وغابت معه كل الأسئلة.

في الطريق، عند نقطة تفتيش، أوقفوه؛
لم يخبر أحداً، لم يتصل، لم يعد؛ فقط اختفى؛ طوال واحد وعشرين يوماً، كانت الأم تتصل بكل رقم تعرفه، تسأل في كل مكان، تذهب إلى نقاط التفتيش وتقف هناك ساعات، لكن لا أحد يعرف شيئاً؛ كان الإخفاء كاملاً، كأن يحيى قد ابتلعته الأرض ولم يترك أثراً.
وفي تلك الليلة، رن الهاتف.
التقطته بسرعة، كما تفعل كل مرة، متوقعة صوتاً يخبرها بأخبار سيئة؛ لكن الصوت هذه المرة كان مختلفاً؛ كان جافاً، رسمياً، وكأنه يقرأ إشعاراً من مكتب حكومي:

- "أهلاً؛ عندكم ولد عندنا؛ تعالوا استلموه؛ الجماعة قررت الإفراج عنه".

لم تصدق؛ كانت تريد أن تسأل: "حي؟" لكن الكلمات لم تخرج؛ وقفت هناك، والهاتف في يدها، وتحاول أن تفهم ما سمعه؛ كان زوجها قد نهض من نومه، ووقف عند باب الغرفة، ينظر إليها بعينين لم تفهم ما يحدث.

- "مين كان؟"
- "قالوا..؛ قالوا استلموا يحيى..؛ في الجوف"...
- "حي؟"
- "ما قالوا..؛ ما سألت"...

في الطريق إلى الجوف، كانت تجلس في المقعد الخلفي، تنظر من النافذة إلى الليل المظلم، وتحاول أن تتخيل كيف سيكون

لقاؤها بيحيى؛ كانت تتذكر آخر مرة رأته فيها، كان واقفاً عند الباب، يربط حذائه، ويقول لها: "لا تقلقي، أمي، أنا كبير." ضحكت حينها، لأنها كانت لا تزال تراه طفلاً، رغم أنه أصبح رجلاً؛ والآن، بعد واحد وعشرين يوماً، كانت ستلقاه مجدداً؛ لكنها لم تكن تعرف كيف سيكون.

عندما وصلوا، رأته.

كان يقف في ساحة مفتوحة، محاطاً برجال لا تعرف وجوههم؛ كان جسده نحيلاً، نحيفاً بشكل لم تره من قبل؛ كان وجهه شاحباً، وعيناه غائرتان، ويداه ترتجفان؛ كان يقف بصعوبة، كمن يحاول أن يثبت جسده على قدمين لا تطيعانه.

مشت نحوه ببطء، وعيناها لا تفارقانه؛ عندما وصلت إليه، نظر إليها، وحاول أن يبتسم، لكن الابتسامة تحولت إلى شهقة ألم؛ وضع رأسه على كتفها، ولم يتكلم؛ فقط وقف هناك، يتنفس بصعوبة، ويداه ترتجفان؛ شعرت بجسده يرتجف، وكانت يده باردة، باردة جداً.

- "تعال، يا ولدي، نروح البيت".

لم يجب، فقط أمسك يدها، ومشى بجانبها ببطء، كمن ينسى كيف يمشي.

**واحد وعشرون يوماً**

في الطريق إلى البيت، جلس يحيى في المقعد الخلفي بجانبها، ورأسه إلى النافذة؛ كان الصمت يملأ السيارة، وصوت المحرك

هو الشيء الوحيد الذي يملأ الفراغ؛ كانت تريد أن تسأله عن كل شيء، لكنها كانت تخاف؛
تخاف من الإجابات، تخاف من أن ينهار، تخاف من أن تكون الأسئلة أكثر إيلاماً من الصمت.
بدأ يتكلم بعد فترة؛ كان صوته خافتاً، مبحوحاً، كمن لم يستخدمه منذ أيام.

- "كانوا يسألوني عن أشياء ما أعرفها..؛ كانوا يخلوني واقف ساعات..؛ وإذا ما رديت، يضربوني"...

نظرت إليه، وحاولت أن تمسك يده، لكنها كانت باردة ومرتجفة.

- "وش كانوا يسألوك؟"
- "أشياء عن ناس ما أعرفهم..؛ عن أماكن ما رحتلها..؛ عن حاجات ما لي فيها"...

صمت طويلاً، ثم قال بصوت أخفض:

- "مرة جابوا إبر..؛ قالوا لي إنها علاج..؛ قالوا لي إنها حتخفف الألم"...

توقفت يدها عن الحركة؛ نظرت إليه، وحاولت أن تقرأ في عينيه شيئاً، لكن عينيه كانتا فارغتين، كأن شيئاً قد مات فيهما.

- "وش الإبرة هذي؟"
- "ما أعرف..؛ بس حسيت جسمي يذوب من جوا..؛ ما كنت أقدر أتحرك بعدها..؛ ولا حتى أصرخ"...

في ذلك المساء، بعد أن وصلوا إلى المنزل، حاولت أن تجعله يأكل؛ جلبت له طبقاً من الشوربة، ووضعته أمامه؛ نظر إلى الطبق، ثم إلى يديه، وحاول أن يرفع الملعقة، لكن يده كانت ترتجف بشدة، وكأنها لا تستطيع الإمساك بشيء.

- "خليني أساعدك، يا ولدي".
- "أنا بقدر، أمي".

حاول مرة أخرى، لكن الملعقة سقطت من يده؛ نظر إلى يديه، وكأنهما تخونانه، ثم قال:

- "ما عادت تطيعني..؛ من يوم الإبرة..؛ يدي ما عادت تطيعني"...

جلست بجانبه، وأخذت الملعقة، وبدأت تطعمه كطفل صغير؛ كان يأكل ببطء، كل لقمة كانت تبدو وكأنها تكلفه جهداً؛ وفي عينيه، كان هناك شيء آخر، شيء لم يقله بعد.

في الليل، عندما حاول النوم، كانت الأم تجلس في غرفة مجاورة، تسمع حركاته؛ كان يتقلب بين الحين والآخر، وأحياناً كان يئن في نومه؛ في منتصف الليل، استيقظ فجأة، وصوته كان خائفاً:

- "أمي..؛ أنا خايف"...

دخلت الغرفة، وجلست بجانبه؛ كان وجهه مغطى بالعرق، وكان يتنفس بصعوبة.

- "من إيش خايف؟ أنت في البيت، يا ولدي؛ خلصت".
- "أنا خايف من الإبرة..؛ حسيت إنها لسا فيني..؛ لسا بتشتغل"...

لم تفهم ما كان يقوله؛ لكنها رأت في عينيه خوفاً عميقاً، خوف طفل يرى وحشاً في الظلام ولا يستطيع أن يشرح ما يراه.
جلست بجانبه، وبدأت تمسح عرقه، وتهمس له بكلمات لا تعرف إن كانت ستواسيه؛ وبعد فترة، نام مجدداً، لكن نومه كان مضطرباً.
في صباح الأحد، استيقظت باكراً، وذهبت لتجهز له الفطور؛ كانت تريد أن تجعله يأكل شيئاً، أن تشعره بأنه في مكان آمن؛ لكنها سمعت صوتاً من غرفته؛ صوت سقوط.
هرعت إلى الغرفة، وفتحت الباب؛ كان يحيى على الأرض، وجهه نحو السقف، وعيناه مفتوحتان، وفمه يلهث للحصول على هواء لا يأتي؛ كانت يداه ترتجفان، وجسده بالكامل يرتجف؛ حاولت أن ترفعه، لكنه كان ثقيلاً، ثقيلاً جداً.

- "يحيى..؛ يحيى..؛ تكلمني"...

لكنه لم يستطع؛ كانت عيناه تنظران إليها، وتحاولان أن تقولا شيئاً، لكن الكلمات لم تخرج؛ فقط ارتجاف، ولهاث، ثم صمت.
في غضون دقائق، كان قد فارق الحياة.
وقفت هناك، تنظر إلى جسد ابنها على الأرض، وعيناها مفتوحتان، ويداها لا تعرفان ماذا تفعلان؛ لم تصرخ، لم تبكِ، فقط وقفت، وكأن الزمن قد توقف، وكأن كل شيء قد تجمد في مكانه.

## ما الذي يبقى

في الأيام التي تلت الموت، كانت الأم تجلس في غرفة يحيى؛ لم تغير شيئاً، كل شيء بقي كما كان؛ سريره غير مرتب، كتبه على الرف، ملابسه في الدولاب؛ كان هناك شيء في الغرفة، شيء يشبه حضوره، شيء يجعلها تشعر أنه لم يذهب بعيداً.

في أحد الأيام، فتحت دولابه، وبدأت تفرز ملابسه؛ كانت تريد أن تتبرع بها، لكنها لم تستطع؛ كل قميص كان يحمل رائحته، كل سترة كانت تذكرها بشيء ما؛ توقفت عند سترة كان يرتديها في الشتاء الماضي؛ وضعت وجهها فيها، واستنشقت رائحته، وأغلقت عينيها.

وفي جيب السترة، وجدت شيئاً؛ قطعة ورق صغيرة، مطوية، مكتوب عليها بخط يده:

"أمي، إذا ما رجعت، اعرفي إني كنت بحبك".

وقفت هناك، والورقة في يدها، والدموع تتساقط على وجهها دون أن تشعر؛ لم تكن تعرف متى كتبها، ولا لماذا، لكنها كانت هناك، كأنه كان يعرف أنه لن يعود.

جلست على الأرض، وبدأت تبكي؛ كانت دموعاً لم تبكِها منذ اليوم الذي مات فيه، دموعاً كانت محبوسة في مكان ما في صدرها، تنتظر اللحظة المناسبة لتخرج؛ بكت طويلاً، حتى شعرت بأن صدرها أصبح فارغاً، وكأن كل شيء قد خرج مع الدموع.

في الأيام التالية، بدأت تسمع عن آخرين؛ عن شاب في حجة، اسمه علي، اختطف ومات بعد ساعتين؛ عن شاب في عمران، اسمه حامس، مات في السجن بعد ثمان وأربعين ساعة؛ عن أسماء لا حصر لها، اختفت في زنازين لا تعرف الرحمة، وماتت تحت إبر لا تعرف الرحمة.

وقفت أمام المرآة في غرفة يحيى، ونظرت إلى نفسها؛ كانت امرأة في الخمسين، وجهها محفور بتجاعيد لم تكن موجودة قبل شهر؛ كانت عيناها تحملان شيئاً جديداً، شيئاً لم تعرفه من قبل، شيئاً يشبه العزيمة، أو ربما التحدي.

خرجت من الغرفة، واتصلت بصحفي تعرفه؛ قالت له: "عندي قصة تريد تسمعها." وفي اليوم التالي، جلست أمام كاميرا، وبدأت تتكلم؛ كانت كلماتها بسيطة، لكنها كانت تحمل كل شيء: "ابني يحيى ناصر أبو سراج، من مديرية صوير، محافظة عمران؛ اختطفوه في ١٠ مارس ٢٠٢٢؛ أفرجوا عنه في ٢ أبريل؛ مات في اليوم التالي؛ قالوا لي إن الإبرة كانت علاج؛ لكنها قتلته".

توقفت، ونظرت إلى الكاميرا، وكأنها تنظر إلى العالم كله:

"أنا لا أريد شيئاً؛ أريد فقط أن يعرف الناس؛ أن يعرفوا أن هناك إبراً لا تعرف الرحمة".

في الخارج، كانت شمس صنعاء تغرب خلف الجبال، والأضواء تبدأ في الظهور في الشوارع؛ وفي مكان ما، في سجن لا يعرف اسمه، كان شاب آخر ينتظر؛ لا يعرف إن كان سيخرج، ولا يعرف إن كان سيخرج حياً؛ لكنه كان يعرف شيئاً واحداً: أنه إذا

خرج، سيقول لأمه كل شيء؛ سيقول لها عن الإبرة، وعن الألم، وعن الأيام التي قضاها في الظلام؛ سيقول لها كل شيء، حتى لو لم تصدقه.

وفي المنزل البعيد، كانت أم يحيى تجلس في غرفته، تنظر إلى الصورة التي التقطت له قبل سنوات، حيث كان يضحك، وكأنه لا يعرف أن الموت ينتظره؛ مدت يدها، ولمست وجهه في الصورة، وهمست:

- "سأخبرهم عنك، يا ولدي؛ سأخبرهم عن الإبرة؛ سأجعلهم يعرفون".

وكانت تعلم أنها ستفعل.

# جثة لا تعرف السلام

## اليوم الثالث

في اليوم الثالث من عمليـــة التبـــادل، وقف العقيد أحمد على أطراف ساحة الاستلام في مأرب؛ كانت الشمس قد بـــدأت تغـــرب، والـــريح بـــاردة تحمل معها غبار الطريق ورائحة شيء آخر، شيء لا يريد أن يسميه؛ كان يعرف أن القافلة قادمة، وكان يعرف أن عزام صيفان بين الجثث التي ستعاد اليوم.

لم يكن يعرف عزام جيداً؛ كان جندياً في كتيبته، شاباً نحيلاً، صوته خفيض، وضحكته سريعة كمن يخاف أن يزعج أحداً؛ ذات مرة، في معسكر التدريب، قال له عزام: "أريد أن أصبح معلم رياضيات بعد الحرب." ضحك أحمد حينها، ليس استهزاءً، بل لأنه لم يتوقع أن جندياً في جبهة مأرب يحلم بشيء عادي كهذا؛ قال له: "ستكون معلماً جيداً، يا ولدي." ولم يره منذ ذلك الحين.

رست القافلة، وبدأ الجنود ينزلون النعوش؛ وقف أحمد أمام أحدها، حيث علم أن جثة عزام هناك؛ مد يده، ورفع الغطاء ببطء؛ وقف ينظر، ويداه لا تتحركان، وعيناه لا ترمشان؛ كان الوجه الذي يراه لا يشبه وجهاً؛ لم يكن هناك عينان، ولا أنف، ولا فم؛ كان هناك شيء آخر، شيء مشوه، شيء لا يمكن أن يكون عزام.

أغلق الغطاء، ونظر إلى السماء؛ كانت الغيوم قد بدأت تتجمع، وكأنها تحاول أن تحجب ما يحدث؛ قال بصوت خفيض:

- "لن تكون معلماً، يا ولدي".

ثم التفت إلى الجنود، وقال:

- "جهزوا النعوش؛ سنأخذهم إلى بيوتهم".

في المساء، جلس أحمد في مكتبه، ينظر إلى ورقة أمامه؛ كانت الورقة تحمل تقريراً عن الجثة، تفاصيل ما فعلوه به؛ أغلق التقرير، ووضعه جانباً؛ كان يعرف أنه لن ينسى ما رآه، وأن الكلمات التي في التقرير لا تعبر عن نصف ما رأته عيناه.

خرج من المكتب، ومشى في المعسكر؛ كانت الخيام مضاءة، والجنود يتحدثون في مجموعات صغيرة؛ مر بجوار مجموعة من الشباب، وسمع أحدهم يقول: "سمعت إنهم قطعوا لسانه..." توقف أحمد، ونظر إليهم، فقال بصوت هادئ:

- "لا تتحدثوا عن ذلك؛ لا تتحدثوا عن كيفية موته؛ تحدثوا عن كيف كان يعيش".

مشى بعيداً، ولم ينظر إلى الوراء.

## الغرفة الباردة

في مخيم النازحين، كانت والدة عزام تجلس على حصير بال، تنظر إلى الباب؛ كانت تعلم أن اليوم هو يوم استلام الجثث؛ كانت تنتظر خبراً عن ابنها، أي خبر؛ كان الانتظار هو الشيء الوحيد الذي تعرفه منذ أشهر.

سمعت خطوات تقترب؛ وقفت بسرعة؛ كان زوجها واقفاً عند الباب، ووجهه شاحب؛ نظر إليها، وقال:

- "جاءوا به".
- "أين هو؟"
- "في المستشفى".
- "هل رأيته؟"

صمت طويلاً؛ ثم قال:

- "لا تذهبي".

لكنها ذهبت.

في المستشفى، وقفت أمام باب ثلاجة الموتى؛ كان الهواء بارداً، والرائحة ثقيلة؛ فتحت الباب ببطء، ورأت النعش؛ رفعت الغطاء، ونظرت.

كان هناك وجه، لكنه لم يكن وجه ابنها؛ كان هناك جثة، لكنها لم تكن جثة عزام؛ كان هناك شيء مشوه، شيء لا يشبه الإنسان؛ وقفت تنظر، ويداها على النعش، تحاول أن تجد شيئاً يعرفونه، شيئاً من ملامحه، شيئاً من روحه؛ لكن لم يكن هناك شيء.

أغلقت النعش ببطء، وخرجت من الغرفة؛ في الردهة، كان زوجها واقفاً، ينظر إليها؛ مشت إليه، ووضعت رأسها على كتفه، وقالت:

- "لم يكن هو".

لم يجب؛ كان يعرف أنها كانت تكذب، لكنه لم يقل شيئاً

في الليل، جلست الأم وحدها في الغرفة الصغيرة؛ لم تكن غرفة عزام، لأنها لم تعد تملك غرفة له؛ كانوا نازحين، يعيشون في خيمة في مخيم على أطراف مأرب، وكل ما تبقى من عزام كان صورة في هاتفها القديم، وصوت في ذاكرتها، وعباءة كان يرتديها في الشتاء الماضي.

أخرجت الهاتف من جيبها، وفتحت الصورة؛ كانت غير واضحة، ملتقطة قبل أن يذهب إلى الجبهة، وكان يضحك فيها، وكأنه لا يعرف أن الموت ينتظره؛ مدّت إصبعها على الشاشة، وكأنها تلمس وجهه، وهمست:

**"ماذا فعلوا بك، يا ولدي؟"**

لم يجبها أحد.

جلست طويلاً، تنظر إلى الصورة، وتحاول أن تتذكر صوته؛ كانت تتذكر كيف كان يناديها: "أمي، أمي." كانت تتذكر كيف كان يضحك، وكيف كان يمشي، وكيف كان ينام ورأسه على وسادته كطفل صغير، رغم أنه أصبح رجلاً؛ كانت تتذكر كل شيء، وكانت تخشى أن تنسى.

في الصباح الباكر، خرجت من الغرفة؛ كانت السماء رمادية، والمطر يتساقط بخفّة على سقف الخيمة؛ مشت بين الخيام، ورأت الناس يتجمعون؛ كانوا يستعدون للجنازة.

وقف الرجال في صفوف، يحملون النعش على أكتافهم، والنساء يبكين من بعيد؛ كانت الأم واقفة في المقدمة، لا تبكي، فقط تنظر إلى النعش الذي يحمل ابنها، وتتساءل إن كان أحد يعرف أنه كان يحلم بأن يصبح معلم رياضيات، وإن كان أحد يتذكر أنه كان يضحك بسرعة، وإن كان أحد سيتذكر ما كان عليه قبل أن يصبح جثة مشوهة.

مشى النعش ببطء، والناس خلفه، والأقدام تغوص في الطين، والمطر يبلل الأكفان؛ وقفت الأم بجانب القبر، تنظر إلى الحفرة التي ستأخذ ابنها؛ سمعت صوت العقيد أحمد وهو يقول:

- "لن ننساك، يا عزام".

نظرت إليه، وكان واقفاً في الجهة الأخرى من القبر، يرتدي زيه العسكري، ووجهه لا يحمل أي تعبير؛ كانت تعرف أنه رأى الجثة، وكانت تعرف أنه يحاول أن يكون قوياً أمام الجنود؛ لكنها رأت يديه، وكانتا ترتجفان قليلاً.

نزل النعش ببطء، وبدأ التراب يتساقط فوقه؛ وقفت الأم هناك، تنظر إلى الحفرة التي ابتلعت ما تبقى من ابنها؛ لم تبكِ، فقط وقفت، ويداها مشبوكتان أمامها، وعيناها على التراب.

وبعد أن انصرف الناس، بقيت وحدها؛ جلست على الأرض بجانب القبر، ووضعت يدها على التراب؛ كان التراب بارداً،

ورطباً، ويلتصق بيدها؛ جلست طويلاً، دون أن تتحرك، ودون أن تتكلم.

وبعد دقائق، سمعت خطوات تقترب؛ رفعت رأسها، ورأت العقيد أحمد واقفاً أمامها، ينظر إلى القبر؛ وقف هناك صامتاً، ثم جلس على الأرض بجانبها، ووضع يده على التراب أيضاً.

صمت طويل، ثم قال، وصوته خفيض:

- "قال لي مرة..؛ قال لي إنه يريد أن يصبح معلم رياضيات؛ ضحكت حينها؛ لم أكن أعرف لماذا ضحكت؛ ربما لأني ظننت أن الحرب ستأخذ كل الأحلام؛ لكنه كان لا يزال يحلم".

نظرت إليه الأم، وعيناها لا تزالان على القبر؛ لم تقل شيئاً، لكنها أومأت برأسها ببطء.

وقف أحمد، ونظر إليها، وقال:

- "لن ننساه؛ لن ننسى أي واحد منهم".

مشى بعيداً، وتركها وحدها.

جلست الأم طويلاً، والتراب تحت يدها، والصوت لا يزال في أذنها: "لن ننساه." كانت تعرف أن الكلمات لن تعيد عزاماً، لكنها كانت تعرف أيضاً أنها ستظل تتذكره، وستظل تتذكر أحلامه الصغيرة التي لم تتحقق.

وقفت ببطء، ونظرت إلى القبر للمرة الأخيرة؛ ثم مشت بعيداً، نحو الخيمة التي كانت تعيش فيها؛ في الطريق، توقفت لحظة،

ونظرت إلى السماء؛ كان المطر قد توقف، والغيوم بدأت تتفرق، وشيء من الضوء يظهر من خلفها.

دخلت الخيمة، وجلست على حصيرها؛ أخرجت الهاتف مرة أخرى، وفتحت الصورة؛ كان عزام لا يزال يضحك فيها، وكأنه لم يذهب إلى أي مكان؛ مدت يدها، ولمست الشاشة، وهمست:

- "لن ينسوك، يا ولدي؛ لن ينسوك".

ثم أغلقت الهاتف، ووضعته في جيبها؛ لم تكن تعرف إن كانت كلماتها ستصل إلى أحد، لكنها كانت تعرف أنها ستفعل كل ما في وسعها لتجعل الناس يتذكرون؛ ستحكي قصته لمن يسأل، وستروي حلمه الصغير، وستخبرهم أن الجندي الذي مات مشوهاً كان يحلم بأن يكون معلماً.

في الخارج، كان المخيم يهدأ، والأضواء تبدأ في الظهور في الخيام؛ وفي مكان بعيد، في سجن لا يعرف اسمه، كان أسير آخر ينتظر؛ لا يعرف إن كان سيخرج، ولا يعرف إن كان سيخرج حياً؛ لكنه كان يعرف شيئاً واحداً: أنه إذا خرج، سيقول لأمه كل شيء؛ سيقول لها عن الألم، وعن الجوع، وعن الأيام التي قضاها في الظلام؛ سيقول لها كل شيء، لأن الصمت كان أثقل من الكلام.

وفي الخيمة، كانت الأم تجلس وحدها، تنظر إلى باب الخيمة المفتوح؛ كانت تعلم أن الغد سيأتي، وأن الحياة ستستمر، وأن الجروح ستلتئم لكنها لن تزول؛ كانت تعلم أن عزام لن يعود، لكنها كانت تعلم أيضاً أن ذكراه ستبقى، وأن الكلمات التي قالها العقيد أحمد ستبقى: "لن ننساه".

وأغلقت عينيها، وتذكرت صوته وهو يضحك، وتذكرت كلماته: "أريد أن أصبح معلم رياضيات." وابتسمت قليلاً، وهي تعلم أنه لن يصبح معلماً، لكنها كانت تعلم أيضاً أنه كان يحلم، وهذا كان كافياً.

# بيت لا يعود إليه أحد

## صباح لا يشبه الصباحات

في الساعة الرابعة فجراً، كان الشيخ أحمد حميد سنان الجماعي يستيقظ كعادته، قبل أذان الفجر بدقائق؛ لم يكن يحتاج إلى منبه، ولا إلى صوت أحد يناديه؛ كان جسده يعرف الوقت كما تعرف الجذور اتجاه الماء؛ نهض من فراشه ببطء، ووقف يتأمل الغرفة المظلمة، ثم توضأ من الإبريق النحاسي القديم الذي كان موضوعاً في زاوية الحمام.

في الخارج، كان الضباب كثيفاً يغطي وادي القفر، والصقيع يلمع على أوراق شجرة التين التي زرعها قبل أربعين عاماً؛ كان الجو بارداً، والهدوء لا يزال يملأ كل شيء؛ وقف عند النافذة، ينظر إلى الظلال التي تتشكل خلف الضباب، ويحاول أن يتذكر شيئاً، أي شيء، من تلك الأيام البعيدة التي كانت فيها الحياة أبسط.

عندما خرج إلى المصلى الصغير في الطابق الأرضي، كانت زوجته قد أيقظت النار في الموقد، ورائحة القهوة تتصاعد من الإبريق؛ وقفت في مدخل المطبخ، تنظر إليه، ويداها تمسكان بطرف ثوبها القديم المرقّع؛ كانت امرأة في الستين، وجهها محفور بتجاعيد عميقة، وعيناها تعرفان كل شيء عن هذا الرجل؛ كانت تعرف أنه لم ينم جيداً، وكانت تعرف أن هناك شيئاً يقلقه، لكنها لم تستطع تحديده بعد.

جلست بجانبه، ووضعت فنجان القهوة أمامه، وقالت:

- "أحمد..؛ سمعتك تتقلب الليلة".

نظر إليها، ورفع الفنجان إلى شفتيه، لكنه لم يشرب؛ وضع الفنجان على الطاولة، وقال:

- "الدنيا ليست بخير، يا أم أحمد".
- "ماذا تقصد؟"
- "لا شيء؛ فقط..؛ أشعر أن اليوم سيكون ثقيلاً".

صلى الفجر، وجلس على سجادته، ورفع يديه بالدعاء؛ كان يدعو طويلاً، وكلماته خفيضة، لا يسمعها إلا الجدران؛ ثم خرج إلى الشرفة المطلة على الوادي، حيث كان الضباب لا يزال كثيفاً، والبرد يلسع الوجه؛ وقف هناك يتأمل، وكان يفكر في أبناءه الأربعة، وفي أحفاده، وفي الأرض التي زرعها بيديه، وفي كل السنوات التي مضت.

كان يفكر أيضاً في شيء آخر، شيء لم يقلها لأحد: أنه شعر، منذ أسابيع، بأن الأيام أصبحت معدودة؛ ليس لأنه مريض، بل لأنه

عرف أنهم لن يتركوه وشأنه؛ لقد وقف في وجههم مرات عديدة، ومنعهم من أخذ أرض الجار، وقال كلمته في مجلس القبيلة، وعرفوا أنه لن يرضخ.

عاد إلى داخل المنزل، وأغلق الباب خلفه، وجلس في الغرفة الرئيسية؛ كان أبناؤه لا يزالون نياماً، وصوت أنفاسهم يملأ البيت بهدوء؛ جلست زوجته بجانبه، ووضعت يدها على يده، وقالت:

- "أحمد، إن كنت خائفاً"...
- "لست خائفاً".
- "إذاً لماذا أنت صامت؟"

نظر إليها، وعيناه تحاولان أن تخفيا شيئاً، ثم قال:

- "لأنني أفكر في الأولاد".
- "ماذا عنهم؟"
- "أنهم سيكونون وحدهم بعدي".

ظلّت صامتة، ثم قالت:

- "لن يكونوا وحدهم؛ أنا هنا".

أمسك يدها، ولم يجب؛ كان يعرف أنها تقول الحقيقة، لكنه كان يعرف أيضاً أن الحقيقة وحدها لا تكفي.

في الساعة الثامنة صباحاً، سمع صوتاً من بعيد؛ صوت محركات، صوت أطقم عسكرية تقترب؛ وقف عند الباب، ونظر إلى الطريق، ورأى الأطقم تتمركز حول منزله من كل الجهات.

سـمع صـوت أبنائـه يركضـون نحـوه، يسـألونه: "أبي، مـاذا يريدون؟" وقف هناك ينظر، ولا يتكلم؛ كان يعرف ماذا يريدون، وكان يعرف أن هذه اللحظة كانت قادمة منذ شهور.

دخل المنزل، وأغلق الباب خلفه، ونظر إلى أبنائه الأربعة الذين كانوا يقفـون أمامـه، وجـوههم شـاحبة، وأعيـنهم تبحـث عـن جواب.

قال لهم، وصوته هادئ، لكنه كان يحمل شيئاً لم يسمعوه من قبل:

- "الآن، سنعلم من يخاف ومن لا يخاف".
- "لكنهم كثيرون، أبي"...
- "أعرف؛ لكن لا يمكننا تسليم أنفسنا؛ ليس لأننا أقوى، بل لأننا لا نريد أن نموت وهم يظنون أننا خفنا".
- "ماذا نفعل؟"
- "ننتظـر؛ سـنرى مـاذا يريـدون؛ وإذا أرادوا الـدخول، فسندخلهم في مواجهة".

في تلك اللحظة، سمعوا صوتاً من الخارج؛ صوت مكبر صوت، يعلو فوق ضجيج المحركات:

- "أيهـا الشـيخ أحمـد الجمـاعي..؛ أنـت مطلـوب لتسـليم نفسـك..؛ إذا لـم تفعـل، فسـنقتحم المـنزل..؛ لـديك ساعة".

وقف الشيخ، ونظر إلى أبنائه، ثم إلى زوجته التي كانت تقف عند باب الغرفة، تنظر إليه، وعيناها لا تفارقانه؛ مشى إليها، ووقف أمامها، وقال لها بصوت خفيض، لا يسمعه إلا هي:

- "يا أم أحمد..؛ إذا حدث شيء، لا تبكي أمامهم؛ دعهم يرون أننا لا نخاف".
- "ولكن"...
- "أعرف؛ أعرف؛ لكني لا أستطيع؛ لا أستطيع أن أسلمهم جسدي على طبق من فضة؛ لقد عشت طويلاً، وستعيشين أنت أيضاً؛ اعتني بالأولاد".

ثم عاد إلى أبنائه، وقال:

- "جهزوا أسلحتكم؛ بعد ساعة، سيهاجمون؛ سندافع عن البيت، ومن يموت يموت، ومن يعيش يعيش؛ لكن لا نستسلم".

في الغرفة المجاورة، كانت زوجته جالسة على الأرض، ويداها ترتجفان، وصوتها لا يخرج؛ كانت تعرف أن زوجها لا يتراجع.

## الإنذار الأخير

مرت الساعة الأولى في صمت ثقيل؛ كانت الأطقم تحاصر المنزل من كل الجهات، والجنود يتبادلون المواقع، والرصاص يطلق في الهواء بين الحين والآخر، كتحذير، أو كترهيب؛ في الداخل، كان الشيخ وأبناؤه يجلسون في الغرفة الرئيسية، وأيديهم على أسلحتهم، وعيونهم على النوافذ.

وقف الابن الأكبر، رجل في الأربعين، اسمه عبدالله، واقترب من والده، وقال له بصوت خفيض:

- "أبي، ربما يمكننا الاتصال ببعض الوجهاء؛ ربما يمكنهم التوسط".

نظر إليه الشيخ، وصمت طويلاً، ثم قال:

- "لقد حاولت؛ اتصلت بثلاثة، كلهم قالوا لي إنهم لا يستطيعون فعل شيء؛ لقد تركنا وحدنا".
- "إذاً ماذا نفعل؟"
- "ننتظر؛ إذا أرادوا الدخول، فسيدخلون؛ لكننا لن نجعلها سهلة عليهم".

جلس الابن الأصغر، ويده ترتجف على سلاحه؛ كان اسمه صالح، في الثانية والعشرين من عمره، وكان الأقرب إلى والده؛ نظر إلى الشيخ، وقال:

- "أبي..؛ هل تعتقد أننا سنموت اليوم؟"

نظر إليه الشيخ، وتوقف لحظة؛ كان يريد أن يقول شيئاً يواسيه، لكنه لم يستطع الكذب؛ قال:

- "لا أعرف، يا ولدي؛ لا أعرف".
- "أنا خائف، أبي".
- "الخوف طبيعي؛ لكن لا تدعه يمنعك من فعل ما يجب فعله".
- "وما الذي يجب فعله؟"

- "أن تقاتل من أجل بيتك، ومن أجل عائلتك، ومن أجل كرامتك؛ حتى لو مت، ستموت وأنت تعلم أنك لم تخن أحداً".

صمت صالح، ثم قال:

- "سأقاتل، أبي؛ لأجلك".

مد الشيخ يده، ووضعها على رأس ابنه، ولم يتكلم؛ في تلك اللحظة، كانت الكلمات زائدة.

بعد ساعة، بدأ الهجوم؛ سمعوا صوت الأبواب تتكسر، وصوت الرصاص يتطاير في كل اتجاه؛ كان الشيخ وأبناؤه يطلقون النار من النوافذ، ويحاولون صد الهجوم؛ لكن العدد كان أكبر، والأسلحة كانت أثقل.

استمرت الاشتباكات نحو ساعة، كان الرصاص يثقب الجدران الطينية، والغبار يملأ الغرف، وصوت الانفجارات يتردد في الوادي؛ كان الشيخ يطلق النار ببطء، كل طلقة تحسب، وكأنه يعرف أن هذه المعركة لن تنتهي بانتصار، لكنه كان يريد أن يجعلها باهظة الثمن.

في إحدى اللحظات، سمع الشيخ صوت صالح يصرخ؛ نظر إليه، ورآه يسقط على الأرض، والدم يتدفق من كتفه، ويحاول أن يوقف النزيف بيده.

- "أبي..؛ أبي"...

ركض الشيخ إليه، وجلس بجانبه، ووضع يده على كتفه، محاولاً أن يضغط على الجرح:

- "اصبر، يا ولدي؛ اصبر".
- "أبي..؛ أنا خايف"...
- "لا تخف؛ سنخرج من هذا؛ أنت بخير".

لكن الشيخ كان يعرف أنه ليس بخير؛ كان يعرف أن الدم يتدفق بغزارة، وكان يعرف أنهم بحاجة إلى طبيب، لكن لا أحد يستطيع الوصول إليهم؛ صرخ بأخيه الأكبر:

- "عبدالله..؛ خذ أخاك إلى الغرفة الخلفية؛ أسرع".

لكن قبل أن يتحرك، سمعوا صوت الباب الرئيسي- يتحطم؛ كانت المليشيا قد اقتحمت المنزل.

وقف الشيخ في وسط الغرفة، بندقيته في يده، ينظر إليهم؛ كانوا عشرة رجال على الأقل، وجوههم مغطاة، وأسلحتهم مصوبة نحوه؛ وقف هناك، لا يتحرك، ولا يتكلم، فقط ينظر إليهم.

قال أحدهم: "ألقِ السلاح، أيها الشيخ".

نظر إليه الشيخ، وصمت، ثم قال، وصوته هادئ، كأنه يتحدث عن شيء عادي:

- "الموت خير من الذل".

ثم رفع بندقيته، وأطلق طلقة واحدة قبل أن يسمع صوت رصاصات متعددة تخترق جسده؛ سقط على الأرض، وعيناه لا تزالان مفتوحتين، تنظران إلى السقف؛ كانت آخر نظرة له، نظرة لا تحمل ألماً، ولا خوفاً، فقط سلام.

## بيت فارغ

بعد أن سقط الشيخ، اقتحمت المليشيا المنزل بالكامل؛ كان أبناؤه قد فروا إلى الغرف الخلفية، لكنهم لم يفلتوا؛ قبضوا عليهم جميعاً، وربطوا أيديهم، واقتادوهم إلى خارج المنزل؛ كان صالح ينزف، والدم يتدفق من كتفه، لكنهم لم يهتموا؛ وضعوه في سيارة مع الآخرين، واقتادوهم إلى مكان مجهول.

ثم عادوا إلى المنزل؛ بدأوا في نهب كل شيء؛ الأثاث، الأواني، حتى ملابس الشيخ وابنه؛ أخذوا كل شيء يمكن حمله، وتركوا المنزل خالياً، فارغاً، كقشرة لا روح فيها.

في الخارج، كانت النساء يبكين من بعيد، والأطفال يصرخون، والرجال يقفون صامتين، ينظرون إلى ما يحدث، ولا يستطيعون فعل شيء؛ وقفت زوجة الشيخ أمام منزلها المهجور، ويداها على صدرها، وعيناها على الباب المكسور؛ لم تبكِ، فقط وقفت هناك، وكأنها تنتظر أن يخرج زوجها من هناك، ويقول لها: "لا تقلقي، أنا بخير".

لكنه لم يخرج.

مشت إلى الباب، ووقفت على عتبته، ونظرت إلى الداخل؛ رأت الجدران المثقوبة بالرصاص، والأبواب المكسورة، والغرفة التي كان فيها زوجها قبل ساعات؛ كانت الدماء لا تزال على الأرض، ولم يمسحها أحد بعد.

جلست على الأرض، ووضعت يدها على البقعة الداكنة، وشعرت بالبرودة؛ كانت تعرف أن هذا هو المكان الذي سقط فيه، وكانت تعرف أن آخر كلماته كانت: "الموت خير من الذل". وقفت ببطء، وخرجت من المنزل، ومشت نحو القرية، ولم تنظر إلى الوراء.

في اليوم التالي، دفنوا الشيخ في مقبرة القرية الصغيرة؛ كانت الجنازة بسيطة، قليلة، لأن الخوف كان لا يزال موجوداً، والمليشيا كانت تراقب؛ وقف أبناء العزلة حول القبر، ينظرون إلى التراب الذي يغطي شيخهم، ويظلون صامتين.

وبعد أن انصرف الناس، بقيت امرأة واقفة أمام القبر؛ كانت زوجة الشيخ، واقفة هناك طويلاً، دون أن تتكلم؛ ثم مشت بعيداً، وعادت إلى بيتها الخالي.

## كلمة لا تموت

في مكان بعيد، في سجن لا يعرف اسمه، جلس صالح في زنزانته؛ كان كتفه لا يزال يؤلمه، والضمادة التي وضعوها عليه كانت قذرة، لكن الألم الجسدي لم يكن شيئاً مقارنة بالألم الآخر، ألم فقدان والده، ألم التيه في سجن لا يعرف نهايته.

في الليل، عندما كان الحراس ينامون، كان يهمس بكلمات والده؛ كان يرددها مراراً، وكأنه يحاول أن يبقيها حية:

- "الموت خير من الذل"...

كانت الكلمات ثقيلة في فمه، لكنه كان يشعر أنها تمنحه شيئاً، شيئاً يشبه القوة، أو ربما الأمل؛ كان يتذكر وجه والده، صوته،

نظراته في اللحظة الأخيرة؛ كان يعرف أن والده لن يموت حقاً، لأن كلماته كانت ستبقى، وكان هو حاملها الآن.

سمع صوتاً من الزنزانة المجاورة؛ صوت شاب يسأل بخوف:

- "من هناك؟"
- "أنا..؛ صالح بن الشيخ أحمد الجماعي".

صمت الشاب، ثم قال:

- "سمعت عنكم؛ سمعت عن والدك؛ لقد كان بطلاً".

همس صالح:

- "كان رجلاً طيباً؛ فقط أراد الدفاع عن بيته".
- "البيوت لا تموت، أخي؛ تبقى طالما هناك من يتذكرها".

صمت صالح، ونظر إلى الجدار، وهمس:

- "لن ننساك، يا أبي؛ لن ننساك".

في الخارج، كانت شمس إب تغرب خلف جبال القفر، والأضواء تبدأ في الظهور في القرى البعيدة؛ وفي منزل مهجور في عزلة بني جماعة، كانت الرياح تعوي بين الجدران المثقوبة، والأبواب المكسورة تتأرجح على مفصلاتها الصدئة، والغبار يغطي الأثاث المبعثر؛ كان البيت فارغاً، لكنه لم يكن خالياً.

كانت الجدران تحمل أثر الرصاص، والأرض تحمل بقعة الدم التي لم تمح، والنافذة التي كان الشيخ يقف عندها كل صباح لا تزال مفتوحة على مصراعيها، وكأنها تنتظر عودته.

وفي الزنزانة، ظل صالح جالساً، يهمس باسم والده، ويحمل كلماته، ويتمسك بالذاكرة التي لا تموت؛ كان يعرف أن البيت المهجور سيظل قائماً، وأن الجدران ستظل تتذكر، وأن الكلمات التي قالها والده ستبقى حية في قلبه، حتى لو نسيها الآخرون.

وفي مكان ما، في الجبال، كانت زوجته واقفة أمام بيتها المهجور، تنظر إليه، وتتذكر كل الأشياء التي حدثت هناك؛ ثم همست:

- "لن ننساك، يا أبا أحمد؛ لن ننساك".

ومشت بعيداً، والكلمات كانت لا تزال في فمها، والذاكرة لا تزال حية، والبيت المهجور لا يزال شاهداً على أن الإنسان يمكن أن يموت، لكن كلماته لا تموت

# وصية جبل

## صوت المحرك الأول

في مساء الثلاثاء الأول من يوليو، كانت الشمس قد بدأت تغرب خلف قمم ريمة الحصينة، تلقي بظلالها الطويلة على قرية البيضاء في مديرية السلفية؛ كان الشيخ صالح أحمد حنتوس جالساً في غرفته الصغيرة، وبين يديه مصحف مفتوح؛ كان يرتل الآيات بصوت خفيض، لا يعلو ولا يخفت، كمن يتحدث إلى نفسه أو إلى من يسمع من بعيد.

في الخارج، كان الهدوء الذي يسبق العاصفة قد حلّ على القرية؛ كانت زوجته، الشيخة فاطمة غالب المسوري، في المطبخ تعد العشاء؛ صوت الأواني كان يملأ البيت بصخب لطيف؛ وفجأة، سمعت شيئاً آخر؛ صوتاً من بعيد؛ صوت محرك ثقيل، لم تألفه في هذه الساعة من المساء؛

توقفت عن العمل، وأصغت؛ ثم سمعت آخر؛ ثم ثالثاً؛ وقفت عند باب الغرفة، ونظرت إلى زوجها.

رفع الشيخ رأسه من المصحف، والتقى نظره بنظرها؛ لم يتكلم، فقط أصغى؛ كانت الأصوات تتزايد، تملأ الوادي، تقترب من القرية؛ وضع المصحف على الرف، ووقف، ومشى إلى النافذة.

"فاطمة،" قال بصوت لا يرتفع، "لا تخرجي."

"ماذا ترى؟"

"لا شيء بعد؛ لكنهم قادمون."

جلست على الأرض، ويداها على حجرها، وعيناها لا تفارقان الباب؛ كانت تعرف أن زوجها لا يخاف، لكنها كانت تعرف أيضاً أن هذا المساء مختلف.

الإنذار

مرت ساعة كاملة، والصوت يتصاعد؛ كانوا يحاصرون القرية من كل الجهات؛ الأطقم العسكرية تملأ الطريق، والأضواء تتسلل بين البيوت، ورائحة البنزين والبارود تملأ الهواء؛ وقف الشيخ عند الباب، ونظر إلى المشهد؛ لم يكن بحاجة إلى عد الأطقم ليعرف أن العدد كبير؛ كان يعرف أنهم جاؤوا من معسكرات ذمار والسخنة، وأنهم لم يأتوا للتفاوض.

عاد إلى داخل المنزل، وأغلق الباب خلفه؛ نظر إلى أبنائه وأحفاده، وجوههم شاحبة، وأعينهم تبحث عن جواب؛ جلس في وسط الغرفة، ورفع يديه بالدعاء؛ كان يدعو طويلاً، وكلماته خفيضة، لا يسمعها إلا الجدران؛ ثم فتح عينيه، ونظر إليهم، وقال:

"لا تخافوا؛ من كان معنا الله، فلا خوف عليه."

جاء الصوت من الخارج؛ مكبر الصوت يعلو فوق ضجيج المحركات؛ كان أحد قيادات الجماعة، فارس رعبان، يناديه باسمه:

"أيها الشيخ صالح حنتوس..؛ أنت مطلوب لتسليم نفسك..؛ إذا لم تفعل، فسنقتحم المنزل..؛ لديك نصف ساعة."

وقف الشيخ، ونظر إلى عائلته، ثم إلى زوجته التي كانت واقفة عند الباب، وعيناها لا تفارقانه؛ مشى إلى الهاتف، وطلب رقم فارس رعبان؛ كان صوته هادئاً، كمن يتحدث عن شيء عادي، وكأنه يتحدث عن الطقس أو محصول القمح:

"يا فارس، أتتكلم معي؟"

"نعم، أيها الشيخ."

"أنا مستعد أن أحيل ملفي إلى النيابة؛ أي واحد عنده عندي دعوى، يحيلها إلى النيابة، وأنا بعمل محامي، وبذيا الجاه لي؛ أنا لا أريد القتال؛ لا نقتتل في أشهر الحرم."

صمت الطرف الآخر، ثم قال:

"الأمر ليس بيدي، أيها الشيخ؛ الأوامر من فوق."

"أنا داخل بيتي؛ كلمنا المشايخ كلهم؛ أنا داخل بيتي، ستقتلوني داخل البيت حقي؛ قتلتموني وأنا داخل بيتي؛ اليوم بي، وبكرة بفارس رعبان؛ انتهى الأمر، باتسافروا؟ سافرتم؛ باتقتحموا البيت؟ بعمل جهدي، وخصمي أنا وأنتم أمام الله؛ أنا اليوم إن شاء الله شهيد؛ أنا اليوم شهيد؛ أنا لم أعتدِ على أحد."

أغلق الهاتف، ونظر إلى أسرته؛ مشى إلى زوجته، ووضع يده على كتفها، وقال:
"لا تخافي، يا فاطمة؛ الله معنا."
"أنا لا أخاف، يا صالح؛ لكنني أخاف عليك."
"عليّ لا تخافي؛ الموت حق، والشهادة غاية."
جلس على الأرض، وأمسك بيدها؛ كانت يداها باردة، لكنها لم ترتجف؛ ظلّوا جالسين هناك في صمت، يستمعون إلى الأصوات تتزايد في الخارج.
الساعات الأخيرة
بدأ القصف بعد منتصف الليل؛ سمعوا صوت القذائف تنفجر حول المنزل، وصوت الرصاص يثقب الجدران؛ وقف الشيخ، وأخذ سلاحه الشخصي؛ كان يعرف أن السلاح لا يكفي، لكنه كان يعرف أيضاً أن الاستسلام ليس خياراً.
وقف أبناؤه بجانبه، يحملون أسلحتهم، وعيونهم على النوافذ؛ لم يكن أحد منهم يعرف كم عدد الرجال في الخارج، لكنهم كانوا يسمعون الأصوات تتزايد، ويشعرون بأن الجدران تهتز من حولهم.
أصيبت فاطمة في الصباح، قبل القصف، عندما أطلقوا النار على البيت؛ كانت تجلس في زاوية الغرفة، تعبئ الذخيرة، وتمررها إلى زوجها بيديها المرتجفتين؛ كان الدم يتدفق من كتفها، لكنها لم تتوقف؛ كانت تعرف أنها لو توقفت، فسينتهي كل شيء.

في إحدى اللحظات، سمع الشيخ صوتاً من الخارج؛ صوت مكبر الصوت ينادي مرة أخرى:
"أيها الشيخ، نعطيك فرصة أخيرة؛ اخرج وسلم نفسك، وإلا فسنفجر المنزل عليك."
وقف الشيخ، ونظر إلى السماء من خلال النافذة المثقوبة، وقال بصوت عالٍ، كأنه يخاطب العالم كله:
"قصفونا داخل المسجد وحاولوا اغتيالي، والآن يهددوني بأنه سيقصف عليّ البيت؛ إن شاء الله هي الشهادة، فمن قاتل دون عرضه أو ماله فهو شهيد."

**كانت هذه وصيته الأخيرة.**

استمرت الاشتباكات؛ كان الشيخ وأبناؤه يطلقون النار من النوافذ، يحاولون صد الهجوم؛ لكن العدد كان كبيراً، والأسلحة ثقيلة، وكان الموت قادماً لا محالة.
في اللحظة الأخيرة، سمع الشيخ صوت الباب يتحطم؛ كانوا قد اقتحموا المنزل؛ وقف في وسط الغرفة، بندقيته في يده، ينظر إليهم؛ كانوا عشرة رجال على الأقل، وجوههم مغطاة، وأسلحتهم مصوبة نحوه؛ وقف هناك، لا يتحرك، ولا يتكلم، فقط ينظر إليهم.
لم يرفع سلاحه؛ كان يعرف أنها النهاية؛ أطلقوا النار عليه، وسقط على الأرض؛ كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، تنظران إلى السقف.
النافذة

في الصباح، بعد أن انصرفت المليشيا، وقفت فاطمة أمام المنزل المهجور؛ كانت الجدران مثقوبة، والنوافذ محطمة، والدماء لا تزال على الأرض؛ مشت إلى الغرفة حيث كان زوجها، وجلست على الأرض، ووضعت يدها على البقعة الداكنة؛ كانت دافئة، رغم كل شيء.

خرجت إلى الفناء، ونظرت إلى النافذة التي كان يقف عندها زوجها كل صباح، يتأمل الجبال ويقرأ القرآن؛ كانت النافذة لا تزال مفتوحة على مصراعيها، كأنها تنتظر عودته.

رفعت رأسها إلى السماء، وقالت بصوت خفيض:

"سأبقى هنا، يا صالح؛ لن أغادر البيت؛ سأبقى لأروي قصتك لأطفال القرية، لأولادهم، لكل من يأتي؛ سأخبرهم أنك كنت معلماً للقرآن، وأنهم قتلوك لأنك رفضت أن تخون رسالتك؛ سأخبرهم أنك وقفت في وجههم، وأنك لم تخف؛ سأبقى هنا، حتى لو كان البيت خالياً."

وقفت هناك طويلاً، والنافذة لا تزال مفتوحة، والصوت لا يزال في أذنها: "إن شاء الله هي الشهادة، فمن قاتل دون عرضه أو ماله فهو شهيد."

كانت تعلم أن الكلمات ستبقى، وأن النافذة ستظل مفتوحة، وأن الجبال ستظل تتذكر.

وفي المساء، عندما حل الظلام، أشعلت فاطمة شمعة صغيرة ووضعتها على حافة النافذة؛ كان ضوءها خافتاً، لكنه كان كافياً

لتذكير كل من يمر بأن هذا البيت كان يوماً داراً للقرآن، وأن ساكنه لم يمت حقاً، لأن كلماته لا تموت.

وقف أحد الأطفال من القرية أمام البيت، ونظر إلى الضوء، ثم سأل أمه:

"ماذا حدث هنا؟"

قالت الأم، وهي تمسك يده:

"هنا كان يعيش رجل علم الأطفال القرآن؛ والآن، هو في الجنة."

نظر الطفل إلى النافذة المضاءة، وقال:

"سأتعلم القرآن مثله."

وفي الجبال، كان صوت الشيخ لا يزال يتردد، كصدى لا يموت.

# جهاد...

## المرأة التي فضحت زيف الأدعياء

### صوت في الظهيرة

في مطبخ صغير، تحت سقف من خشب البناء القديم، كانت جهاد الأصبحي تقطع البصل؛ كانت السكين تتحرك بسرعة، بعادة لا تحتاج إلى تفكير، وعيناها على القدر الذي يغلي على النار؛ كانت رائحة الطعام تملأ الغرفة، وضوء الظهيرة يتسلل من نافذة صغيرة في الجدار الشرقي، يمد خطاً من الضوء على الأرض الترابية؛ في الخارج، كان الهواء ساخناً، والغبار يغطي أوراق شجرة التين المجاورة.

كانت ابنتها، مريم، في الثانية عشرة، تجلس في الغرفة المجاورة تدرس؛ كانت تسمع صوتها أحياناً وهي تردد آية من القرآن، أو تهمس بسؤال لم تفهمه؛ كانت جهاد تبتسم كلما سمعت صوتها، وتستمر في

تقطيع البصل، وتضيف التوابل إلى القدر، وتحرك الحساء بملعقة خشبية طويلة.

وفجأة، توقفت السكين فوق البصل؛ كان الصوت مختلفاً؛ ليس كصوت سيارة عابرة، ولا شاحنة محملة بالبضائع؛ كان ثقيلاً، متكرراً، كأن الأرض تهتز مع كل نبضة منه؛ رفعت رأسها، وأصغت؛ الصوت الثاني كان أوضح، ثم الثالث، ثم تعددت الأصوات حتى صارت كأنها سرب من الحشرات الضخمة يقترب؛ وضعت السكين على الطاولة ببطء، ومسحت يدها على مئزرها؛ مشت إلى الباب، وفُتحته قليلاً، ونظرت من الشق.

الطريق الذي كان فارغاً قبل دقائق، كان الآن يمتلئ بالرمادي، بالأطقم العسكرية التي تتوقف أمام منزلها ومن خلفه وحوله؛ كان الرجال ينزلون من الأطقم، ويصطفون، ويوجهون أسلحتهم نحو المنزل؛ وقفت هناك، تنظر، ويدها على الباب، وعيناها لا ترمشان.

أغلقت الباب، ووقفت خلفه، وظهرها إلى الخشب؛ كانت تسمع أصوات الرجال في الخارج، أوامر متقطعة، خطوات على التراب، صوت مكابح سيارة، صوت رجل يصرخ بشيء لم تفهمه؛ نظرت إلى الغرفة التي كانت فيها ابنتها، ورأت مريم واقفة عند باب غرفتها، وعيناها واسعتان، ووجهها شاحب؛ نظرت إليها جهاد، ورفعت إصبعها إلى شفتيها.

ثم مشت إلى المطبخ، وأطفأت النار تحت القدر، ووقفت هناك، في وسط الغرفة.

سمعت صوت الباب وهو ينخلع من مفصلاته؛ لم تتحرك؛ وقفت في وسط الغرفة، ويداها إلى جانبيها، تنظر إلى الباب؛ دخلوا، أربعة أو خمسة، وجوههم مغطاة، وأيديهم على أسلحتهم؛ وقفوا، ونظروا إليها؛ كانوا يلبسون ثياباً مدنية، لكن مشيتهم كانت مشية عسكرية؛ وقفت تنظر إليهم.

قال أحدهم، وصوته خشن: "وين البنات؟"

لم تجب؛ وقفت هناك، تنظر إليه.

نظر إليها الرجل، ثم رفع سلاحه، وأطلق؛ سمعت صوت الرصاصة وهي تخترق الهواء، ثم شعرت بدفعة في صدرها، ثم سقطت على الأرض؛ كانت عيناها مفتوحتان، تنظران إلى سقف الغرفة حيث كان الضوء يتسلل من شق في الخشب، حيث كانت تعلق سلة خوص منذ سنوات.

في الغرفة الخلفية، كانت مريم واقفة، وعيناها مفتوحتان، ويداها على فمها؛ كانت ترى أمها على الأرض، والدم يخرج من صدرها، والرجال يمشون حولها دون أن ينظروا إليها؛ سمعت أحدهم يقول: "خلاص، جهزوا السيارة." ثم سمعت خطوات تقترب من غرفتها، ثم رأت الباب يفتح، ورأت يداً تمد إليها.

**غبار لا يمحى**

لم يبقَ أحد في الغرفة بعد أن سقطت جهاد؛ كان الرجال يتجولون في المنزل، يفتحون الأدراج، يسقطون الأواني على الأرض؛ سمعت خطواتهم في المطبخ، تفتح الخزائن، تسحب

الأطباق، ترمي ما لا تريده على الأرض؛ سمعت صوت أحدهم وهو يقول: "خذ هذا، وهذا، والسيارة تنتظر".
كان أحدهم يسحب السجادة من تحت قدميها، وآخر يفتح الدولاب، والثالث يخرج من المطبخ حاملاً قدر النحاس الذي كانت تطبخ فيه قبل دقائق؛ مشوا حولها دون أن ينظروا إليها؛ كان الضوء يتسلل من النافذة المفتوحة، ويسقط على جسدها على الأرض، على الدم الذي كان يتسع ببطء، على عينيها المفتوحتين.
في الخارج، كان هناك صمت؛ كانت النساء واقفات على بعد، ينظرن إلى المنزل؛ كان الأطفال يبكون، والرجال يقفون صامتين؛ كان بعضهم يعرف جهاد، وكان بعضهم لا يعرفها.
خرج الرجال من المنزل بعد ساعة، حاملين ما نهبوه، وأغلقوا الأبواب خلفهم؛ في الداخل، كانت جهاد لا تزال على الأرض، والدماء لا تزال تتسع، وعيناها لا تزالان مفتوحتين، والضوء لا يزال يتسلل من النافذة التي تركت مفتوحة.
في اليوم التالي، عندما انصرفت الأطقم، اقتربت النساء من المنزل؛ كانت جارة جهاد، امرأة في الخمسين تدعى فاطمة، هي أول من دخلت؛ وقفت على عتبة الباب، ونظرت إلى الداخل؛ رأت جهاد على الأرض، والدماء قد جفت الآن، وعيناها لا تزالان مفتوحتين؛ دخلت ببطء، وجلست بجانب جهاد، ووضعت يدها على جبهتها؛ ثم نهضت، وغطت جهاد بغطاء كان معلقاً على الحائط، وخرجت من المنزل.

في الأيام التالية، بدأ الخبر ينتشر بين القبائل؛ كان الناس يتحدثون عنه في المجالس، في الأسواق، في المساجد؛ كان البعض يعرف أنها كانت امرأة هادئة، تعيش حياتها ببساطة، لا تؤذي أحداً؛ كان البعض الآخر لا يعرفها؛ كان الغضب يتراكم.

في ديوان آل عواض، في مساء اليوم الثالث، كان الرجال يجلسون في صفين، والنار مشتعلة في وسطهم؛ كان الشيخ ياسر العواضي واقفاً، ينظر إليهم؛ كان رجلاً في الخمسين، وجهه محفور بتجاعيد السنوات؛ نظر إلى الحضور، وقال:

- "جهاد الأصبحي، ابنة البيضاء؛ قتلوها في بيتها؛ نهبوا بيتها؛ ولم يقدموا لنا جواباً واحداً".

نظر إليه أحد الشبان، وكان صوته يرتجف قليلاً:

- "ماذا سنفعل، يا شيخ؟"

نظر إليه ياسر، وصمت لحظة، ثم قال:

- "سنتذكرها".

وقف رجل آخر، وهو في الأربعين، وقال:

- "لكنهم أقوى منا، يا شيخ؛ لديهم أسلحة، ولديهم أطقم، ولديهم"...

قاطعه ياسر:

- "وما لدينا؟ لدينا كرامة؛ لدينا أرض؛ لدينا تاريخ؛ جهاد كانت وحدها في بيتها، لكنها لم تخف؛ رأوها وهي تنظر إليهم، ولم ترتعد".

جلس ياسر، ونظر إلى النار:

- "سنتحدث مع القبائل؛ سنحشد من يستطيع الحشد؛ سنفعل ما بوسعنا".

في الأسابيع التالية، بدأت القبائل تتحرك؛ كانت الاجتماعات تعقد في كل مكان، وكان الرجال يتوافدون من القرى البعيدة؛ في مديرية ردمان، وقف ياسر العواضي أمام جمع كبير من رجال القبائل؛ رفع ياسر يده، وقال:

- "بعد شهر ونصف من قضية العار..؛ جهاد قتلت في بيتها، وبيتها نُهب، والجناة لم يُسلموا للعدالة؛ أنا لا أدعوكم إلى حرب؛ أنا أدعوكم إلى كرامة؛ من يريد أن يقف معنا، فليقف؛ ومن لا يريد، فليبقَ في بيته".

وقف صامتاً لحظة، ينظر إلى الحشود:

- "يعلم الله ما نسعى إلا للسلام وحقن الدماء بكرامة وشرف".

في المقابل، كانت المليشيا تطلق القذائف على المديرية، وتستخدم الطائرات المسيرة؛ لكن القبائل لم تتراجع.

## نافذة لا تغلق

في منزل جهاد المهجور، كانت الرياح تعوي بين الجدران المثقوبة، والأبواب المكسورة تتأرجح على مفصلاتها الصدئة؛ كانت الجدران تحمل أثر الرصاص، والأرض تحمل بقعة الدم التي لم تمح، والنافذة التي كانت تنظر منها كل صباح لا تزال مفتوحة على مصراعيها.

في أحد الأيام، بعد أسابيع من الحادثة، وقفت فاطمة أمام المنزل مرة أخرى؛ كانت جارة جهاد، المرأة التي دخلت المنزل أول مرة بعد الحادثة؛ كانت واقفة هناك، تنظر إلى النافذة المفتوحة.

دخلت المنزل مرة أخرى، وجلست على الأرض، ووضعت يدها على البقعة الداكنة؛ جلست هناك طويلاً؛ ثم وقفت، وخرجت من المنزل.

في الخارج، كانت السماء صافية، والقرية تعود إلى هدوءها؛ لكن النافذة ظلت مفتوحة، والضوء ظل يتسلل، والبقعة الداكنة ظلت على الأرض.

وفي مكان بعيد، في سجن لا يعرف اسمه، كانت مريم تجلس في زنزانتها؛ كانت في الثانية عشرة من عمرها؛ كانت تهمس باسم أمها كل ليلة.

في الليل، عندما كان الحراس ينامون، كانت تهمس:

- "أمي"...

وفي الخارج، كانت السماء تمطر، والتراب يتحول إلى طين، والنافذة لا تزال مفتوحة؛ وفي مكان بعيد، في الجبال، كانت القبائل تستعد، والرجال يحملون أسلحتهم؛ وكان اسم جهاد يتردد في كل مكان.

وفي صباح أحد الأيام، وقفت فاطمة أمام النافذة المفتوحة، ووضعت شمعة صغيرة على حافتها؛ كانت شمعة بسيطة.

وقف طفل صغير أمام البيت، ونظر إلى الضوء، ثم سأل أمه:

- "ماذا حدث هنا؟"

قالت الأم، وهي تمسك يده:

- "هنا كانت تعيش امرأة تدعى جهاد".

نظر الطفل إلى النافذة المضاءة، وقال: سأتذكرها".

# من يحمي؟

## شارع الحصبة

كانت الإشارة حمراء؛ في شارع الحصبة، حيث تختلط أضواء المحلات التجارية بظلال المساء، توقفت سيارة وفاء المخلافي؛ كانت في الخامسة والثلاثين، طبيبة، وأماً لطفلين، وزوجة لرجل يعمل في التجارة؛ كانت تعود إلى منزلها بعد يوم طويل في العيادة، وقد توقفت عند محل الصرافة لتستلم حوالة مالية أرسلها لها زوجها من الخارج.

في يدها، كانت تحمل كيساً بلاستيكياً صغيراً، فيه بعض الخضار والفواكه، وقطعة من الكعك التي اشترتها لأطفالها؛ كانت تفكر في العشاء، في واجبات أطفالها المدرسية، في موعد غد مع مريضة؛ كانت تفكر في أي شيء عادي، أي شيء يجعل الحياة تبدو طبيعية، أي شيء يبعد عنها التفكير في واقع المدينة التي تعيش فيها؛ مدينة تخضع لسيطرة مليشيا الحوثي منذ سنوات، حيث الخوف صار جزءاً من الهواء، والأسئلة ممنوعة، والمال يمكن أن يكون سبباً للموت.

في المرآة الجانبية، رأت سيارة رمادية تتوقف خلفها؛ لم تنتبه؛ كانت صنعاء مزدحمة، والسيارات تتوقف خلف بعضها طوال الوقت؛ لكن السيارة الرمادية لم تكن كباقي السيارات؛ كانت تقترب ببطء، ولم تكن تبحث عن موقف؛ كانت تبحث عنها؛ كان خلف زجاجها رجال يعرفون بالضبط ماذا تحمل، ويعرفون أنها وحدها، ويعرفون أن لا أحد سيسأل.

سمعت صوت زجاج يتكسر؛ التفتت، ورأت وجهاً مغطى، ويداً تمد إلى بابها؛ حاولت إغلاق الباب بقوة، لكن الرجل كان أسرع؛ مد يده إلى الحقيبة على المقعد المجاور؛ كانت حقيبتها تحمل المال، تحمل كل ما تملك؛ تشبثت بها، وسحبها باتجاهها؛ كانت تحاول ألا تتركها، تحاول أن تقاوم، تحاول أن تصرخ.

رأت ضوءاً؛ سمعت صوتاً؛ ثم شعرت بشيء يخترق رأسها؛ لم تسمع شيئاً بعد ذلك.

سقطت على المقعد، وعيناها مفتوحتان؛ كان ضوء الشفق الذهبي يتسلل من الزجاج المكسور؛ كانت ترى السماء، وتسمع أصواتاً من بعيد، خطوات تركض، سيارات تتحرك، صرخات؛ ثم صمت؛ كان الدم يتسع على المقعد الأبيض، يغطي تفاصيل سيارتها، يغطي كل شيء.

الرجال اختفوا؛ حقيبتها اختفت؛ بقيت وفاء في سيارتها، والدم يتسع، والناس يتجمعون حولها، لا يعرفون ماذا يفعلون؛ بعضهم صرخ، بعضهم اتصل بالشرطة، وآخرون وقفوا صامتين، ينظرون إلى الجسد الذي لم يعد يتحرك؛ كان أحد

المارة، رجل في الخمسين، يحاول أن يفتح باب السيارة، لكنه كان مقفلاً؛ قال بصوت مرتجف: "الله..؛ الله..." ثم تراجع؛ امرأة أخرى كانت تبكي، وتكرر: "وفاء..؛ إنها وفاء..؛ الطبيبة وفاء"...

لكن لا أحد كان يعرف أن الجناة ليسوا لصوصاً عاديين؛ كانوا من قوات النجدة، الذين يدينون بالطاعة المطلقة للحوثي نفسه، وهم من يفترض أن يحموا المدينة.

## الغرفة الباردة

في منزل وفاء، كان الظلام قد بدأ يحل؛ أطفالها، صبي في العاشرة وفتاة في الثامنة، كانوا ينتظرون عودتها؛ كانوا جائعين، وسألوا والدهم: "متى تعود أمي؟" قال: "قريباً." لم يكن يعلم أن الكلمة الأخيرة التي سيقولها عن وفاء ستكون "قريباً."

جاء بدلاً من صوتها، صوت جارهم، يقرع الباب بعنف، ويحاول أن يشرح شيئاً لا يستطيع شرحه؛ وقف زوج وفاء عند الباب، ينظر إليه، ويحاول أن يفهم ما يقوله؛ لكن الكلمات كانت تتداخل، ولم تكن تصل؛ قال الجار: "وفاء..؛ في الشارع..؛ أصابوها..." وقال شيئاً آخر، لكنه لم يسمعه.

لم يصدق؛ ظن أنها حادث، ظن أنها مصابة، ظن أن كل شيء سيكون على ما يرام؛ لكنه رأى وجه الجار، ورأى عينيه، وعرف أن لا شيء سيكون على ما يرام.

في المستشفى، وقف أمام باب غرفة الطوارئ؛ كان الجدار أبيض، والضوء بارد، ورائحة المطهرات تملأ المكان؛ كان ينظر

إلى الباب المغلق، ويحاول أن يتنفس؛ لم يكن يريد أن يدخل؛ كان يريد أن يظل واقفاً هناك، في الردهة، حيث لا شيء مؤكد بعد.

جاء الطبيب، رجل في الأربعين، وجهه يحمل إرهاقاً لا يخفيه؛ نظر إلى زوج وفاء، وقال بصوت خفيض:

- "آسف..؛ لقد حاولنا"...

لم يكمل الجملة؛ لم تكن هناك حاجة.

وقف زوج وفاء هناك، لا يتحرك؛ كان يسمع الكلمات، لكنها لم تصل؛ كان ينظر إلى الطبيب، ويحاول أن يفهم؛ قال:

- "هل هي...؟"

أومأ الطبيب برأسه.

لم يصرخ؛ لم يبكِ؛ فقط وقف هناك، ويداه إلى جانبيه، وعيناه على الأرض؛ كان يرى قدميه، ورأى الأرضية البيضاء، ورأى ظله الطويل تحت الضوء البارد؛ كان يحاول أن يتذكر وجهها، صوتها، كيف كانت تبدو وهي تضحك؛ لكن الصور كانت تتلاشى، وكأنها تذوب في الضوء الأبيض.

في غرفة الانتظار، كانت والدة وفاء قد وصلت؛ كانت امرأة في الستين، وجهها محفور بتجاعيد عميقة، وعيناها تبحثان عن ابنتها في كل وجه؛ رأت زوجها واقفاً، ورأت الطبيب يهمس بشيء، ورأت الكلمات التي لم تسمعها تصل إليها عبر النظرات؛ سقطت على الأرض، ويداها على صدرها، وصوتها لا يخرج؛ كانت تحاول أن تصرخ، لكن الصرخة كانت عالقة في حلقها، لا

تجد مخرجاً؛ كانت تكرر اسم وفاء بصوت مبحوح، وكأنها تحاول استدعاءها من حيث ذهبت.

في تلك الليلة، في منزل وفاء، كانت عائلتها تجلس في غرفة المعيشة؛ كان زوجها واقفاً عند النافذة، ينظر إلى الخارج، وعيناه لا ترمشان؛ كانت والدتها تجلس على الأرض، ويداها على ركبتيها، ووجهها لا يحمل أي تعبير؛ كانت تنظر إلى صورة وفاء على الحائط، وتحاول أن تتذكر صوتها، كيف كانت تناديها كل صباح.

## الاكتشاف

في صباح اليوم التالي، أعلنت شرطة صنعاء القبض على المتهمين؛ كان البيان موجزاً، مكتوباً بعناية، كأنه يقرأ من على شاشة مكتوبة مسبقاً؛ قال البيان: إن الجريمة كانت سرقة، وإن المتهمين من قوات النجدة، وإن لهم سوابق في التقطع والنهب، وإنهم سيعاقبون.

في منزل وفاء، وقف زوجها أمام التلفاز، يسمع البيان؛ كان وجهه لا يعبر عن شيء، لكن يديه كانتا ترتجفان؛ قال بصوت لا يعلو ولا يخفت:

- "من قوات النجدة؟ يعني من جيشهم؟ يعني من يفترض أن يحمي الناس هو من قتلها؟"

لم يجب أحد؛ كان الصوت الوحيد هو صوت المذيع على التلفاز، يقرأ البيان الرسمي، وكأنه يتحدث عن حادثة مرور، وكأنها ليست جريمة قتل امرأة في شارع مزدحم، في وضح النهار.

في مكتب التحقيق، كان رجال الأمن يجلسون حول طاولة، ينظرون إلى ملف الجريمة؛ كان وجه أحدهم، وهو رجل في الأربعين، يعكس شيئاً من التعب، شيئاً من الإرهاق الذي يأتي مع سنوات من العمل في ظل نظام لا يعرف العدالة؛ كان يقرأ التقرير، ويحاول أن يفهم ما حدث، لكن التفاصيل كانت غامضة؛ كل ما عرفوه أن وفاء قُتلت، وأن مالها سُرق، وأن الجناة من قوات النجدة.

نظر الرجل إلى زميله، وقال بصوت خفيض:

- "هذا المتهم له سوابق؛ قبل وفاء، اختطفوا آخر، وقبله قتلوا آخر؛ وقبله امرأة أخرى؛ هذا نمط".

نظر إليه زميله، وكان صوته أكثر حدة، أكثر خوفاً:

- "وماذا سنفعل؟"
- "سنكتب التقرير؛ سنقول إنهم قبض عليهم؛ وسنغلق الملف".
- "لكنهم من قوات النجدة"...
- "بالضبط؛ ولهذا لن نفتح الملف أكثر من هذا".

أغلق الرجل الملف، ونظر من النافذة إلى الشارع؛ كان الشارع مزدحماً، والناس يمشون كالنمل، لا يعرفون أن هناك من يقرر مصيرهم من خلف مكاتب مكيفة؛ كان يعرف أن الجريمة لن تُحل حقاً، وأن الجناة سيُعاقبون بشكل رمزي، وأن وفاء ستصبح مجرد رقم في ملف مغلق؛ كان يعرف أيضاً أنه لن يستطيع فعل أي شيء.

في الأيام التالية، بدأت التفاصيل تتكشف؛ تبين أن المتهم الرئيسي- في جريمة مقتل وفاء يدعى عصام محمد يحيى العقيدة، وهو عسكري يتبع قوات النجدة، وله سجل سابق في قضايا تقطيع وحرابة ونهب؛ كان معروفاً لدى الشرطة، لكنهم لم يفعلوا شيئاً؛ ظل يعمل في قوات النجدة، يحمل سلاحاً، ويرتدي زياً رسمياً، وكأنه لم يرتكب جرائم من قبل.

هذه المعلومة كانت كافية لتخلق أسئلة أكبر: كيف يمكن لعسكري يتبع قوات النجدة أن يكون مجرماً معروفاً بسوابقه؟ وكيف ظل يعمل في قوات النجدة رغم سوابقه؟ ومن الذي أعطاه الأذن بالقتل والنهب في وضح النهار؟

**السؤال**

في منزل وفاء، كان زوجها يجلس في غرفة المعيشة، ينظر إلى الصور التي كانت تملأ الجدران؛ كانت صور وفاء، صور أطفالها، صور العائلة في مناسبات مختلفة؛ كانت تبتسم في كل الصور، كأنها لا تعرف أن الحياة ستنتهي بهذه الطريقة؛ كان يحاول أن يفهم لماذا؛ لماذا هي؟ لماذا في هذا الشارع، في هذا التوقيت؟ ماذا كان يمكنها أن تفعل لتتجنب ذلك؟

دخل أحد أقارب وفاء، وهو رجل في الأربعين، قال بصوت خفيض:

- "لقد سمعت أن المتهم الرئيسي له سوابق؛ كان معروفاً لدى الشرطة؛ لكنهم لم يفعلوا شيئاً".

نظر زوج وفاء إليه، وصوته كان هادئاً، لكنه كان يحمل شيئاً من الغضب المكبوت:

- "إذا كان معروفاً، فلماذا لم يمنعوه؟ لماذا تركوه يقتل؟"
- "لا أعرف؛ لا أحد يعرف".
- "أو ربما يعرفون، ولا يريدون أن يقولوا".

صمت طويل، ثم قال بصوت أخفض:

- "إذا كانوا يعرفون، فهذا يعني أنهم يسمحون بذلك؛ هذا يعني أن الحوثي نفسه هو من يقتل".

لم يجب أحد.

في الخارج، كانت صنعاء تنام؛ كانت الشوارع تخلو، والأضواء تخفت، والمدينة تحتضن جراحها في صمت؛ وفي مكان بعيد، في سجن لا يعرف اسمه، كان رجال آخرون يجلسون في زنازينهم، اختطفوا بسبب حوالات مالية، لا يعرفون إن كانوا سيبقون هناك إلى الأبد، أو إن كانوا سيخرجون غداً؛ كانوا يعرفون فقط أن الحياة في هذه المدينة أصبحت رهاناً، وأن كل خطوة قد تكون الأخيرة.

## الأثر

في الأيام التالية، انتشر الخبر في صنعاء؛ كان الناس يتحدثون في الأسواق، في المساجد، في المجالس؛ كانوا يعرفون وفاء، أو كانوا يعرفون عنها؛ كانت طبيبة، وأماً، وزوجة، وإنسانة عادية تعيش حياتها في مدينة تحت الحصار؛ لم تكن سياسية، ولم تكن

ناشطة، ولم تكن جزءاً من أي صراع؛ كانت فقط امرأة استلمت حوالة مالية، وهذا كان كافياً ليكون نهايتها.

لكن القصة لم تكن عن حوالة، ولا عن سرقة؛ كانت عن نظام يسمح بقتل من يمتلكون أموالاً، وعن قوات تحمي المجرمين بدلاً من حماية المواطنين؛ كان الجناة ينتمون إلى الحوثي، إلى نفس الجهة التي تدعي أنها تحكم المدينة وتحافظ على أمنها؛ كانت هذه هي المفارقة التي جعلت الجريمة أكثر إيلاماً: من يفترض أن يحمي هو من يقتل.

في إحدى الليالي، جلست والدة وفاء في غرفة ابنتها؛ كانت تنظر إلى ملابسها، إلى كتبها، إلى أشياءها الصغيرة التي كانت تملأ الغرفة؛ كانت تلمسها واحدة تلو الأخرى، وكأنها تحاول أن تشعر بوجودها؛ كانت تفتح الدولاب، وتشم رائحة عطرها، وتلمس فستانها الذي كانت ترتديه في آخر عيد؛ كانت تهمس بصوت خفيض:

- "لماذا؟ لماذا أنتِ؟ ما ذنبكِ؟ لماذا لم يتركوكِ؟ كنتِ ستعطينهم المال، كنتِ ستعطينهم كل شيء، لماذا قتلوكِ؟"

لم يجبها أحد؛ فقط الصمت كان حاضراً، والليل كان مظلماً.

في اليوم التالي، وقفت جارة وفاء أمام منزلها؛ كانت امرأة في الأربعين، لم تكن تعرف وفاء جيداً، لكنها كانت تعرف صوتها كل صباح وهي تفتح باب سيارتها؛ كانت تعرف ضحكتها الخفيفة عندما كانت تتحدث مع أطفالها؛ كانت تعرف أنها

كانت تبتسم دائماً، حتى في الأيام الصعبة؛ وقفت هناك، تنظر إلى الباب المغلق، وتتذكر كل التفاصيل الصغيرة التي تجعل الإنسان إنساناً.

دخلت المرأة إلى المنزل، وجلست في غرفة المعيشة، ونظرت إلى الصور على الحائط؛ كانت صور وفاء، صور أطفالها، صور العائلة في مناسبات مختلفة؛ كانت تبتسم في كل الصور؛ جلست هناك طويلاً، تحاول أن تفهم كيف يمكن لإنسان أن يفعل ذلك بإنسان آخر، وكيف يمكن لنظام أن يسمح بذلك.

في الخارج، كان الشارع يعود إلى حركته الطبيعية؛ السيارات تمر، والناس يمشون، والأطفال يلعبون؛ وكأن الجريمة لم تحدث، وكأن وفاء لم تكن هنا، وكأن كل شيء عاد إلى طبيعته؛ لكن شيئاً ما قد تغير؛ كان هناك خوف جديد في العيون، كان هناك صمت جديد في الكلام، كان هناك إحساس بأن لا أحد آمن.

**الشمعة**

في صباح أحد الأيام، وقفت جارة وفاء أمام المنزل مرة أخرى، ووضعت شمعة صغيرة على عتبة الباب؛ كانت شمعة بسيطة، بيضاء، في كأس زجاجي صغير؛ كان ضوءها خافتاً، لكنه كان كافياً لتذكير كل من يمر بأن هذه الجريمة لن تُنسى، وأن وفاء لم تمت عبثاً.

وقف طفل صغير أمام المنزل، ونظر إلى الضوء، ثم سأل أمه:

- "ماذا حدث هنا؟"

قالت الأم، وهي تمسك يده، وصوتها خفيض:

- "هنا كانت تعيش امرأة تدعى وفاء؛ قتلوها لأنها كانت تملك أموالاً".
- "لماذا قتلوها؟"
- "لا أعرف، يا ولدي؛ لا أحد يعرف".

نظر الطفل إلى النافذة المغلقة، إلى الباب المغلق، إلى الضوء الخافت، وقال:

- "سأتذكرها".

في الخارج، كانت شمس صنعاء تشرق ككل صباح؛ كانت السيارات تمر، والناس يمشون، والأطفال يذهبون إلى المدارس؛ وكانت الشمعة لا تزال مشتعلة على عتبة الباب، تذكيراً صغيراً بأن هناك من لا يزال يتذكر، وأن هناك من لا يزال ينتظر، وأن هناك أسئلة لا تزال بلا جواب.

وفي مكان بعيد، في زنزانة لا يعرف اسمها، كان أحد أقارب وفاء يجلس وحيداً؛ كان قد اعتُقل بعد أيام من الحادثة، ولم يعرف أحد لماذا؛ كان ينظر إلى الجدار الخرساني، ويحاول أن يتذكر وجه وفاء، صوتها، ضحكتها؛ كان يعرف أن الكلمات لن تعيدها، لكنه كان يعرف أيضاً أن الصمت ليس خياراً؛ كان يهمس باسمها كل ليلة، وكأنه يحاول أن يبقيها حية، وكأنه يحاول أن يمنع النسيان.

كانت صنعاء، تحت حكم الحوثيين، قد أصبحت مدينة حيث الخوف هو اللغة المشتركة، والموت هو المصير المحتمل لكل من يجرؤ على امتلاك شيء؛ قُتلت وفاء لأنها استلمت حوالة

مالية؛ وقُتل غيرها لأسباب أقل؛ وفي كل مرة، كان الجناة من نفس النظام الذي يفترض أن يحمي؛ هذا هو السؤال الذي بقي بلا جواب، وهذا هو الخوف الذي ظل يسكن قلوب الناس.

وفي منزل وفاء، كانت والدتها لا تزال جالسة في غرفة ابنتها، تنظر إلى الصورة، وتتذكر، وتنتظر

# لن تخرجن إلا جنازات

## المكلا

في سبتمبر ٢٠١٦، كانت شمس حضرموت تغرب خلف جبال المكلا، تلقي بظلالها على المدينة التي كانت تتعافى من حرب؛ كانت أسماء العميسي، في الثالثة والعشرين من عمرها، تقف على شرفة منزل في أحد أحياء المكلا، تنظر إلى البحر البعيد؛ كانت أمًا لطفلين، وزوجة لرجل كان يلاحقونه؛ كانوا يبحثون عنه، وكانت تعرف أنهم سيجدونه يومًا؛ لكنها لم تكن تعرف أن هذا اليوم سيكون قريبًا.

سمعت صوت انفجار من بعيد؛ ثم آخر؛ ثم تعددت الأصوات حتى صارت كأنها سرب من النحل الضخم يقترب؛ كانت تعرف ما يعنيه هذا الصوت؛ كانت تعرف أن الكمين قد نُصب، وأنه قد وقع فيه؛

وقفت هناك، تنظر إلى البحر، ويداها ترتجفان، وصوتها لا يخرج؛ كانت تعرف أن حياتها كما عرفتها قد انتهت.

في تلك الليلة، لم تنم؛ كانت تجلس على الأرض، وظهرها إلى الجدار، وعيناها مفتوحتان؛ كانت تفكر في أطفالها، في زوجها، في مستقبلها الذي كان يبدو واضحًا قبل ساعات، والآن أصبح غامضًا مثل البحر في الليل؛ كانت تعرف أنها يجب أن تغادر، أن تذهب إلى مكان آمن، أن تبتعد عن هذا الصراع الذي لم تطلبه؛ لكنها لم تكن تعرف إلى أين تذهب.

بعد أيام، غادرت المكلا؛ كانت في السيارة مع والدها، ماطر العميسي، ورجلين آخرين، أحدهما كان خطيبها السابق؛ كانت تعود إلى صنعاء، حيث كانت حياتها قبل كل شيء؛ لم تكن تعرف أن هذه الرحلة ستكون آخر رحلة لها كإنسانة حرة.

## نقطة التفتيش

في ٧ أكتوبر ٢٠١٦، كانت صنعاء تغط في هدوء المساء؛ كانت السيارة تسير ببطء في شوارع العاصمة، وعينا أسماء على الطريق، وذهنها مشغول بشيء آخر؛ كانت تفكر في أطفالها، في والدها الذي كان يجلس بجانبها، في كل شيء عادي.

ثم توقفت السيارة؛ كانت نقطة تفتيش، كأي نقطة تفتيش في صنعاء؛ رجال بأسلحتهم، وجوههم مغطاة، وأعينهم تبحث عن شيء؛ طلبوا منهم النزول، وفتحوا الأبواب، وبدأوا في التفتيش؛ لم تفهم لماذا؛ لم تكن تحمل شيئًا، لم تكن تفعل شيئًا، كانت فقط تعود إلى منزلها.

لكنهم عثروا على شيء؛ أو ربما لم يعثروا على شيء، لكنهم وجدوا ما كانوا يبحثون عنه: سببًا للاعتقال؛ قالوا إنها مرتبطة بتنظيم القاعدة، وإنها عميلة للتحالف، وإنها تخابر مع العدو؛ كانت كلمات لا تفهمها، وكانت تتساقط عليها كالمطر، ثقيلة، باردة، لا معنى لها.

أخذوها مع والدها، وأخذوا الرجلين الآخرين؛ وضعوها في سيارة مختلفة، وأغلقوا الباب خلفها؛ لم ترَ صنعاء مرة أخرى كما كانت تعرفها.

## المخفي

في مبنى إدارة البحث الجنائي، بدأت المحنة؛ كان المكان باردًا، والجدران رمادية، والضوء أبيض قاسٍ؛ وضعوها في غرفة صغيرة، وأغلقوا الباب؛ كانت تعرف أن هذا المكان يسمى "المخفي" أو "السجن المخفي"، حيث يختفي الناس ولا يعودون.

سمعت أصواتًا من الغرف المجاورة؛ أصوات صراخ، أصوات بكاء، أصوات ضرب؛ كانت تعرف أن والدها هناك، وأن الرجلين الآخرين هناك، وأنهم يعذبونهم؛ كانت تجلس في زاوية الغرفة، ويداها على ركبتيها، وعيناها على الباب؛ كانت تنتظر دورها.

جاءوا إليها بعد ساعات؛ كانت امرأة، شرطية، وجهها لا يعبر عن شيء؛ بدأت في الضرب؛ كانت تضربها بالعصا، وبيديها، وتصرخ في وجهها: "اعترفي، اعترفي." كانت أسماء تردد: "ما أعرف شيء؛ ما لي به." لكن الضرب لم يتوقف.

كانوا يضربونها على وجهها، على جسدها، على أي مكان يمكن أن يصلوا إليه؛ كانت تسقط على الأرض، ثم يرفعونها، ثم يسقطونها مرة أخرى؛ كانت تحاول أن تحمي نفسها، لكن لم يكن هناك مكان تختبئ فيه؛ كانت تبكي، وتصرخ، وتتوسل، لكنهم لم يتوقفوا.

في الغرفة المجاورة، كانوا يعذبون والدها أمامها؛ كانوا يضربونه ويطلبون منه الاعتراف، وهو ينكر؛ كانوا يعذبون الرجلين الآخرين بنفس الطريقة؛ كانوا يعلقونهم من السقف، ويضربونهم، ويهددونهم بالاغتصاب؛ كانوا يفعلون كل شيء ليجعلوهم يتكلمون؛ لكن لم يكن هناك ما يقولونه.

قال والد أسماء لمنظمة العفو الدولية بعد سنوات: "كانوا يحضرون اثنين آخرين إلى غرفتنا معصوبي العينين وأيديهما مقيدة، ويضربونهما أمامنا، ويجبرونا على مشاهد عملية الضرب؛ فكانوا يضربونهما ويطلبون منهما الاعتراف بينما ينكران ارتكاب أية مخالفات؛ نحن بقينا صامتين خوفًا من أن يُطلقوا النار علينا؛ الله وحده يعلم مدى العذاب الذي تعرضنا له".

قال سعيد الرويشد، أحد المعتقلين: "لم يسمحوا لنا بالنوم، واستمروا في ضربنا؛ كانوا يستجوبونني من الثالثة بعد الظهر حتى الرابعة أو الخامسة مساء في اليوم التالي؛ وكان يستمر هذا لعدة أيام متتالية، وكان كل استجواب يتخلله تعذيب وضرب؛ كانوا يسألونني: هل أنت مع التحالف العربي؟ وهل تجندون

المقـاتلين مـن أجـل التحـالف؟ وهـل أنـت جـزء مـن شـبكة التجسس؟"

ووصـف كيـف كـان هـو وصـديقه مكبلـين بالسلاسـل مـن معصميهما، وكيف تم تعليقهما من السقف لمدة ساعات في المرة الواحدة، وأحيانًا طوال الليل؛ وتعرضهما للركل واللكم، بما في ذلك أعضائهما التناسلية، وضربهما بالأحذية، وتهديدهما بالاغتصاب.

## خطة أكبر

مع مرور الأيام، بدأت أسماء تدرك أن ما يحدث لها ليس مجرد اعتقال عابر، بل جزء من خطة أكبر؛ لم يكونوا يريدون فقط معاقبتها، بل كانوا يريدون استخدامها كأداة؛ كانوا يريدون تحويلها إلى عميلة، أو ورقة ضغط، أو وسيلة لابتزاز عائلتها، أو نموذجاً يُرعب به النساء الأخريات.

في أحد الأيام، جاءها أحد المحققين، وكان صوته مختلفًا، لم يكن يصرخ، بل كان يتحدث بهدوء، كمن يعرض صفقة؛ قال لها:

- "أسماء، أنت امرأة ذكية؛ أنت تفهمين الوضع؛ إذا تعاونتِ معنا، يمكننا أن نخفف عنك؛ إذا أخبرتنا كل ما تعرفينه عن زوجك وعن شبكاته، إذا وافقتِ على العمل معنا، يمكننا أن نطلق سراحك؛ فكري في أطفالك؛ فكري في مستقبلك".

نظرت إليه، وعيناها دامعتان، لكنها لم تجب؛ كانت تعرف أنها إذا تعاونت، ستصبح خائنة؛ وإذا لم تتعاون، ستبقى هنا، تعذب، حتى تموت.

استمر الضغط؛ كانوا يأتون إليها كل بضعة أيام، يعرضون عليها الصفقة نفسها، يهددونها، يرغبونها؛ كانوا يقولون لها إنها إذا تعاونت، سترى أطفالها؛ وإن لم تفعل، فستبقى هنا إلى الأبد.

لم تستسلم؛ رفضت؛ قالت لهم: "لن أخون؛ لن أخون زوجي، ولن أخون نفسي؛ افعلوا ما تشاؤون".

لكن الرفض كان له ثمن؛ زاد التعذيب، واشتد الضغط، وأصبحت أيامها جحيمًا لا ينتهي.

## المحاكمة الجائرة

في يناير ٢٠١٨، وقفت أسماء أمام المحكمة الجزائية المتخصصة في صنعاء؛ كانت المحكمة خاضعة للحوثيين، والقضاة كانوا يعرفون ما يريدون؛ كان الحكم جاهزًا قبل أن تبدأ الجلسة: الإعدام بتهمة "إعانة العدو"؛ كان حكمًا جائرًا، لا دليل عليه، ولا شهود، ولا محامٍ يدافع عنها.

لكن هذه لم تكن التهمة الوحيدة؛ في حكمهم، اتهموها أيضًا بـ"الفعل الفاضح" لأنها كانت تسافر مع رجلين ليسا من محارمها؛ قالوا إنها ارتكبت فعلًا فاضحًا، وحكموا عليها بالجلد ١٠٠ جلدة؛ كان هذا جزءًا من الإذلال، جزءًا من محاولة تحطيمها نفسيًا قبل جسديًا؛ كانوا يريدون أن يجعلوها مثالاً، عبرة لكل امرأة تفكر في مخالفة أوامرهم.

كانت واقفة هناك، في قاعة المحكمة، ويداها مقيدتان، ووجهها شاحب؛ كانت تنظر إلى القضاة، وتحاول أن تفهم كيف يمكن لإنسان أن يفعل كل هذا بإنسان آخر؛ كانت تفكر في أطفالها، في والدها، في كل السنوات التي ضاعت؛ لم تبكِ، لم تصرخ، فقط وقفت هناك، تنتظر.

لكن والدها كان حكيماً؛ كان يعرف أن هذه المحكمة ليست محكمة، وأن هذا الحكم ليس حكمًا، وأن الأمل الوحيد هو في الاستئناف؛ قال لها: "لا تخافي، يا بنتي؛ سنستأنف؛ سنذهب إلى محكمة الاستئناف، وإلى المحكمة العليا؛ سنقاتل حتى النهاية".

بدأت رحلة الاستئناف؛ كان المحامي عبدالمجيد صبرة، وهو محامٍ حقوقي معروف، يتولى الدفاع عنها؛ كان يعرف أن القضية ليست قضية، وأن التهم ملفقة، وأن كل ما يحدث هو محاكمة سياسية؛ لكنه كان يعرف أيضًا أن القانون هو السلاح الوحيد المتاح.

في فبراير ٢٠١٩، عقدت المحكمة الجزائية الاستئنافية جلستها السابعة في القضية؛ كان هناك ضغط حقوقي محلي ودولي، وكانت المؤشرات تشير إلى أن المحكمة قد تلغي الحكم؛ لكنها لم تفعل؛ خففت الحكم إلى السجن ١٥ عامًا، لكنها لم تلغِه.

استمرت المعركة؛ في مايو ٢٠٢١، قضت المحكمة العليا التابعة للحوثيين بإلغاء الحكمين الابتدائي والاستئنافي، وأعادت الملف

إلى الاستئناف لإعادة النظر؛ كان انتصارًا جزئيًا، لكنه لم يكن كافيًا؛ أسماء كانت لا تزال في السجن، ولا تزال تعاني.

في عام ٢٠٢٢، أصدرت المحكمة حكمًا جديدًا: السجن ١٠ سنوات؛ كانت هذه هي العقوبة النهائية، لكنها لم تكن عادلة؛ أسماء كانت قد أمضت بالفعل سنوات في السجن، وكانت حالتها الصحية تتدهور.

لكنها لم تستسلم؛ قالت لمحاميها: "لن أطعن في الحكم؛ لقد يئست من محاكمهم؛ أريد فقط أن أخرج حية".

## سنوات في الظل

في السجن المركزي بصنعاء، حيث كانت أسماء تقضي سنواتها، كان الزمن يقاس بطرق غريبة؛ لم تكن هناك نوافذ، ولا ضوء طبيعي، ولا هواء نقي؛ كان المكان رطبًا، وباردًا، ورائحة العفن تملأ كل زاوية؛ كانت تنام على أرضية خرسانية، وتأكل طعامًا لا يكفي، وتشرب ماءً ليس نقياً.

كانت تسمع أصواتًا من الزنازين المجاورة؛ أصوات بكاء، أصوات صراخ، أصوات ضحك مجنونة؛ كانت تعرف أن هناك نساء أخريات معها، يعانين مثلها، ينتظرن مثلها؛ لكنهن كن منعزلات، لا يتحدثن، لا يتواصلن؛ كان الخوف هو اللغة المشتركة.

في بعض الأيام، كانت تأتي "الزينبيات"، وهي مليشيات نسائية تابعة للحوثيين، لتعذيب المعتقلات؛ كن يضربنهن، ويشتمنهن،

ويهددونهن؛ وكانت على رأسهم مسؤولة السجن، المدعوة أم الكرار المروني.
كانت أم الكرار تأتي إلى الزنازين كل بضعة أيام؛ كانت امرأة في الأربعين، وجهها قاسٍ، وعيناها لا ترحمان؛ كانت تقف أمام الزنازين، وتنظر إلى المعتقلات، وتقول بصوتها الخشن: "لن تخرجن من هنا إلا جنازات." كانت تكرر هذه الكلمات مرارًا، كأنها تريد أن تزرع اليأس في قلوبهن.
كانت تمارس بحقهن السب والشتم، وتضربهن، وتهينهن؛ قالت إحدى المعتقلات بعد سنوات: "كانت أم الكرار تأتي إلينا كأنها ملكة، وكانت تفعل بنا ما تشاء؛ كنا نخاف من صوت خطواتها".
كانت أسماء تتعرض للضرب المستمر، وللإهانة، وللحرمان من كل شيء؛ كانت تُمنع من الاتصال بأطفالها، وتُمنع من رؤية عائلتها، وتُمنع من أي شيء يمكن أن يذكرها بأنها إنسانة؛ كانت تعيش في الظلام، جسديًا ونفسيًا.
في يوليو ٢٠٢٠، أصدر مستوصف السجن تقريراً رسمياً عن حالة أسماء؛ قال التقرير إنها تعاني من تكرار النزيف وهبوط في نسبة الدم، وآخر فحص كانت نسبة الدم لديها ٨، وهذا يؤدي إلى دوخة وإرهاق وبدأ يؤثر على القلب؛ خلص التقرير إلى أنها تحتاج إلى متابعة وعلاج في مركز متخصص بالنساء والولادة.
لكنها لم تتلقَ العلاج؛ كان الحوثيون يمنعونها من الخروج، ويمنعون الأطباء من الدخول؛ كانت تبقى هناك، في الظل،

تنتظر الموت أو الخلاص؛ وكانت أم الكرار تمنع أي محاولة لتحسين أوضاعهن، وكأنها تستمتع بمعاناتهن.
في يونيو ٢٠٢٣، صدر قرار بضم اسمها إلى كشوفات العفو؛ كانت قد أمضت ثلاثة أرباع مدة العقوبة، وكان من المفترض أن تُفرج عنها؛ لكن النائب العام المعين من قبل الحوثيين رفض تنفيذ القرار؛ بقيت أسماء في السجن، لا تعرف متى ستنتهي هذه المعاناة.

## الحرية

في ١ أكتوبر ٢٠٢٥، وبعد تسع سنوات من الاعتقال، أفرج الحوثيون عن أسماء العميسي؛ كانت تخرج من السجن، ووجهها شاحب، وجسدها منهك، وعيناها لا تزالان تحملان شيئًا من الخوف الذي لا يزول؛ كانت تخطو ببطء، كمن ينسى كيف يمشي، وكمن يخاف أن تكون هذه الحرية حلماً آخر.
في الخارج، كانت الشمس تشرق، والضوء يتسلل بين المباني، والهواء نقي؛ وقفت هناك، تنظر إلى السماء، وتتنفس بعمق، وتحاول أن تصدق أن هذا حقيقي؛ كانت تفكر في أطفالها، في والدها، في كل السنوات التي ضاعت؛ كانت تفكر في كل شيء، وفي لا شيء.
لم يكن هناك استقبال كبير، ولا احتفالات؛ كانت مجرد امرأة تخرج من السجن، بعد تسع سنوات من الاختفاء؛ كانت تعرف أن الحياة لن تعود كما كانت، وأن الجروح لن تلتئم بسهولة؛ لكنها كانت تعرف أيضًا أنها حرة، وأن هذا هو كل ما يهم.

في الأيام التالية، بدأت الأخبار تنتشر؛ كان الناس يتحدثون عن أسماء، عن قصتها، عن معاناتها؛ كانوا يتساءلون كيف يمكن لإنسان أن يتحمل كل هذا، وكيف يمكن لنظام أن يفعل كل هذا؛

في حلم يقظتها لاح امامها حوار السجانة

قالت لهن أم الكرار ذات يوم:

**"لن تخرجن إلا جنازات"**

لكن الباب انفتح.

لم يحملوا أسماء على نعش.

خرجت على قدميها.

كانت أضعف مما كانت عليه، وأكبر مما ينبغي لامرأة في عمرها، لكنها كانت حية.

توقفت عند الباب.

رفعت وجهها إلى الشمس.

وللمرة الأولى منذ تسع سنوات، لم يكن فوق رأسها سقف زنزانة.

أغمضت عينيها.

وتنفسّت.

**لم تنتصر لأنها استعادت السنوات.**

**لم يكن أحد يستطيع أن يعيدها.**

**انتصرت فقط لأنها خرجت حية.**

لكن أسماء كانت صامتة؛ كانت تجلس في منزلها، تنظر من النافذة إلى الشارع، وتتذكر كل شيء؛ كانت تعرف أن كلماتها لن تعيد السنوات، وأن الصراخ لن يوقف الألم؛ لكنها كانت تعلم أيضاً أن الصمت ليس خياراً.

في إحدى الليالي، جلست في غرفتها، ونظرت إلى صورتها القديمة، حيث كانت تضحك، وكأنها لا تعرف أن الموت ينتظرها؛ مدت يدها، ولمست وجهها في الصورة، وهمست:

- "لن أنسى؛ لن أنسى أبداً".

كانت تعلم أن السنوات لا تعود، وأن الجروح لا تلتئم، لكنها كانت تعلم أيضاً أن ذكراها ستبقى، وأن قصتها ستُروى، وأن هناك من سيتذكر

# الجهاد الذي طلبوه مني..؛ الدعارة باسم الدين

## الصبر

كانت صنعاء في ذلك المساء تتنفس بصعوبة؛
الغبار العالق بين الجدران الطينية القديمة والحديدية الجديدة كان يترسب على كل شيء، حتى على الأرواح؛ الساعة الرابعة والنصف عصراً، حين تتحول الشمس إلى قرص برتقالي ساخن يلصق بظلاله الطويلة على الأرض، كانت انتصار تمشي- بخطواتها الخفيفة على رصيف الشارع المؤدي من المعهد إلى حيث لا تعرف؛
كانت تضع سماعة أذنها، تستمع إلى أغنية قديمة لأم كلثوم، تلك التي تغني عن الصبر؛ لم تكن تعلم أن الصبر الذي ستختبره لن يكون من نوع الغناء.
زميلتها يسرى كانت إلى جوارها، تحمل حقيبة صغيرة تحتوي على قطعة قماش ملونة لتصميم جديد كانتا تعملان عليه؛ كانتا تتبادلان النظرات حين تظهر سيارة أو حافلة قريبة، تلك النظرات التي تقول: "الحمد لله، نحن بخير، هذا يوم عادي، لن يحدث شيء." لكن شيئاً كان يحدث فعلاً، خلف الستائر المغلقة للنوافذ، وفي الغرف المظلمة التي لا يراها أحد، كان القدر يعد خيوطه.
باص مخابرات الأدعياء السلاليين توقف فجأة؛ ليس توقفاً طبيعياً، بل توقف عنيف جعل إطارات المطاط تصدر صريراً

حاداً كصراخ طفل مذعور؛ باب الباص انفتح بصوت معدني ثقيل، وخرج منه رجلان بلباس عسكري لا يحمل أي رتبة واضحة، كأنهم كانوا متخفين في جلودهم.
انتصار رفعت نظرها من هاتفها؛ رأت وجوهاً صلبة لا تعبر عن شيء؛ لا غضب، لا تهديد، لا أي شيء يمكن قراءته؛ كانت كالأقنعة الحجرية التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ؛ رجل منهم أمسك بذراعها، لكنه لم يشدها بعنف، بل بقسوة باردة، كمن يلتقط شيئاً لا قيمة له.
"هيا معنا".
الكلمات كانت مسطحة، بلا نبرة، بلا مشاعر.
انتصار نظرت إلى يسرى، ورأت فيها نفس الذهول الذي تشعر به؛ كلتاها تريد أن تسأل، لكن الصوت كان قد جف في حلقهما؛ حاولت انتصار أن تفتح فمها لتقول: "لماذا؟"، لكن الرجل الآخر كان قد أمسك بيسرى بنفس الطريقة الباردة، ونقلهما إلى داخل الباص.
الجلوس في المقاعد الخلفية كان أشبه بالسقوط في بئر؛ الباب أغلق بقوة، والمحرك بدأ يئن كأنه يحمل حملاً ثقيلاً من الأرواح؛ انتصار نظرت من النافذة، رأت المارة ينظرون إليهم بفضول خفيف ثم يمضون، كأنها مشهد عادي؛ هناك، في شوارع صنعاء، أصبح الاختفاء عادة يومية لا تثير الدهشة.
الفيلا كانت في منطقة نائية، تحيط بها جدران عالية تعلوها أسلاك شائكة؛ لم تكن كغيرها من الفيلات التي شاهدتها انتصار

في أفلامها المفضلة؛ هذه لم يكن فيها حمامات سباحة أو حدائق مزهرة؛ كان فيها رائحة الرطوبة والخرسانة والموت المنتظر.

دخلوها من باب حديدي صرير، إلى فناء داخلي مكشوف لكن تحيط به جدران مظلمة تجعل الشمس تبدو كضوء مصطنع؛ في الزاوية، كان هناك كلب أسود مربوط بسلسلة، ينبح بصوت خشن أجش، ويرمقهم بنظرات لا تختلف عن نظرات حراسه.

أخذوها إلى غرفة صغيرة في الطابق السفلي؛ الجدران بيضاء لكنها متسخة، والضوء الوحيد كان مصباحاً صغيراً معلقاً في السقف؛ لم يكن هناك أثاث؛ مجرد كرسي معدني، وطاولة صغيرة، وزجاجة ماء نصف فارغة ربما كانت لشخص آخر.

جلسوها على الكرسي، وربطوها؛ الحبال كانت خشنة، تترك أثراً على معصميها كلما تحركت.

ثم دخلت المرأة.

لم تكن شرطية بالمعنى الذي تعرفه انتصار من الأفلام؛ لم تكن ترتدي الزي الرسمي الأنيق، ولا تحمل شارة أو اسماً؛ كانت ترتدي عباءة سوداء طويلة، ووجهها مغطى بنقاب أسود يترك فقط عينيها مكشوفتين؛ لكن عينيها كانتا كل شيء؛ عينان زرقاوان شاحبتان، نادرتان في تلك البقعة من العالم، تنظران إليك نظرة من لا يرى فيك سوى طين يمكن تشكيله.

"اسمك انتصار الحمادي".

لم تكن جملة سؤال، بل إثبات؛ كأن اسمها هو جريمتها الأولى.

"نعم".
الكلمة خرجت بصوت مبحوح؛ لم تكن انتصار تعلم أن تلك الكلمة ستكون بداية الكابوس.
الشرطية - أو كما ستعرفها لاحقاً باسم "أم زينب" - بدأت تدور حولها ببطء، كأنها تتفقد سلعة؛ خطواتها كانت خفيفة لكنها تترك أثراً في الهواء، كأنها تنحت الصمت حولها.
"أنا أعرف كل شيء عنك؛ كل شيء؛ صورتك، عملك، حياتك؛ حتى ما تأكلينه في الفطور".
انتصار رمشت؛ كيف تعرف؟ من أين؟ لكنها لم تسأل؛ كان هناك شعور داخلي يقول لها: لا تسألي، فقط اسمعي.
"أنت عاهرة".
الكلمة سقطت كالصخرة في الماء الراكد؛ انتصار شهقت؛ حاولت أن تنهض، لكن الحبال منعتها.
"لا، أنا لست..؛ أنا مجرد عارضة أزياء، هذا عملي، أنا"...
"عارضة أزياء؟" ضحكت أم زينب ضحكة جافة كالورق المقرمش؛ "هذا ما تسمينه أنتِ؛ نحن نسميه فجوراً؛ أنتِ تكشفين جسدكِ للرجال، تبيعينه بالصور، هذا زنا في عين الله".
"لكنني لا"...
"اصمتي!" الصيحة كانت مدوية، جعلت جدران الغرفة تهتز؛ اقتربت منها أم زينب حتى أصبحت أنفاسها تلامس وجه انتصار؛ "أنتِ هنا لتتكلمي، ليس لتجادلي؛ إذا أردتِ الخروج من هنا، ستعترفين".

"بماذا؟"
"بكل شيء".
بدأت العصا في التأرجح؛ لم تكن عصا عادية، بل عصا مطاطية ثقيلة، يمكنها أن تترك أثراً دون أن تكسر العظم؛ الضربة الأولى كانت على كتفها، شعرت بها كصاعقة تمتد من عظم الكتف إلى أصابع قدميها؛ صرخت، لكن الصراخ كان محبوساً في حلقتها، تحول إلى شهقة مكتومة.
"اعترفي".
"ما أعرف شيء".
الضربة الثانية على بطنها؛ كانت أقسى، جعلتها تطوي جسدها إلى الأمام، لكن الحبال منعتها من السقوط؛ شعرت بطعم معدني في فمها، كأنها عضت على قطعة نقدية صدئة؛ كانت تعرف الآن أن هذا الطعم هو الدم.
"اعترفي".
"ما لي به؛ ما لي به".
كانت تردد الكلمات كتعويذة، كأنها إن تمسكت بها ستحميها من المزيد؛ لكن الكلمات لم تكن درعاً.
بدأوا يضربونها بأيديهم الآن؛ كانت القبضات تسقط على وجهها، على خديها، على أنفها؛ مرة، مرتين، عشر مرات؛ لم تعد تحسب؛ أصبح الجسد كتلة من الألم لا تميز بين ضربة وأخرى؛ كل شيء يؤلم، كل خلية صارت تصرخ.

سقطت على الأرض بعد أن فكوا حبالها، لكنها لم تتمكن من النهوض؛ بدت الأرضية الباردة كجنة، على قسوتها؛ لكنها لم تمكث طويلاً؛ قبض أحدهم على شعرها، طويلها الأسود المنسدل الذي كانت تعتني به كتاج لها، ورفع رأسها قسراً.

"انظري إلي".

رفعت عينيها المصابتين بالدماء والدموع؛ رأت وجه أم زينب، ذلك القناع الحجري، وعينيها الزرقاوين المتجمدين؛ كانت تراقبها كعالم حشرات يدرس فريسة.

"أنتِ لن تغادري هذه الغرفة حتى تعترفي؛ قد يكون غداً، قد يكون بعد شهر، قد يكون بعد عام؛ لكننا نملك الوقت؛ أنتِ لا تملكين شيئاً".

في الغرفة المجاورة، كان الألم مختلفاً؛ كان ألم الرجال.

والدها، عبدالله، كان رجلاً هزيلاً، لا يرى العالم منذ أن فقد بصره في حادث قبل عقد من الزمن؛ كان يعتمد على صوته ليقرأ العالم، على لمساته ليفهم المكان، على صوت ابنته ليعرف أنها بخير؛ لم يكن يعرف أنها في الغرفة المجاورة، ولم يكن يعرف أنها تتعذب؛ كل ما كان يعرفه أنه سمع صوت ابنته وهو يصرخ، لكنه لا يستطيع أن يصل إليها.

كانوا قد علقوه من سقف الغرفة؛ يداه ممدودتان، ورجلاه لا تلامس الأرض؛ كان وزنه كله يتدلى من معصميه، فتحول الجلد إلى جروح مفتوحة، والدم يسيل في قطرات بطيئة تتبخر على الأرضية الخرسانية.

"اعترف عن بنتك".
صوت الرجل الذي يضربه كان خشناً، يحمل نبرة استمتاع؛ هذا الرجل لم يكن غريباً، كان "أبو فجر"، ذلك الاسم الذي سمعته انتصار فيما بعد وسيظل يطاردها ككابوس متكرر.
"ما عندي شيء أعترف به؛ بنتي ما سوَت شيء".
الكلمة كانت تخرج بصعوبة من حلقه الجاف؛ كل ضربة كانت تجعله يتأرجح كدمية مكسورة، ثم يعود إلى موضعه.
"سوَت شيء؛ كثيرة أشياء؛ هي عاهرة، وهي تبيع جسدها، وهي تتعاطى المخدرات".
"هذا كذب؛ بنتي طيبة، بنتي"...
ضربة على بطنه جعلته يكف عن الكلام ويتقيأ؛ لم يكن هناك شيء في معدته ليخرجه، لكن الجسد كانت لديه حيله الخاصة للاستجابة للألم.
"سنعيدها إليك، لكن بعد أن نصلحها؛ بعد أن تصبح مؤمنة؛ بعد أن تعترف".
كانوا يعذبون الرجلين الآخرين بنفس الطريقة؛ صديقان كانا معها في جلسة التصوير، رجلان لا يعرفان شيئاً عن حياتها الخاصة، لكنهما وجدا نفسيهما في هذا الجحيم لمجرد أنهما كانا هناك.
أحدهما كان يصرخ: "أنا ما بعرفها! أنا لست جاسوساً!" لكن صراخه لم يوقف الضرب؛ بل جعله أشد.

انتصار لم تعد تسمع ما كان يحدث في الغرفة الأخرى، أو ربما كانت تسمع لكنها لم تعد قادرة على الفصل بين الأصوات؛ كل شيء امتزج في لوحة صاخبة من الألم: صراخ، ضربات، بكاء، أنين، صوت العصا وهي تشق الهواء، صوت الحبال وهي تشد، صوت الدم وهو يتقطر.

كانت تحاول أن تحمي نفسها؛ تلف جسدها كالقنفذ، لكنهم كانوا يفتحونها بالقوة، كأنها دمية تالفة يريدون تفكيكها ليروا ما بداخلها.

"اعترفي".

"ما أعرف شيء".

"زنا".

"لا".

"مخدرات".

"لا".

"جاسوسة".

"لا، أنا مواطنة، أنا"...

ضربة على فمها جعلت شفتها تتشقق، ونبع الدم بغزارة؛ كان الطعم الآن أشبه بالحديد المذاب.

في لحظة ما، بين الضربات، رفعت عينيها إلى السقف؛ رأت مصباحاً صغيراً، ورأت ذبابة تدور حوله بحماقة، تحاول الوصول إلى النور؛ تمنت لو كانت تلك الذبابة؛ لو كان بإمكانها الطيران، الخروج من هذا المكان، حتى لو إلى الموت.

"أم زينب" جلست أمامها بعد أن توقف الضرب مؤقتاً؛ كانت تمسح العصا بقطعة قماش بيضاء، كأنها تنظفها من دم انتصار.
"لدي عرض لكِ".
انتصار لم تستطع أن تنظر إليها؛ كانت تنظر إلى الأرض، حيث كان دمها يتجمع في بركة صغيرة.
"نحتاج إلى نساء مثلكِ؛ نساء جميلات، يملكن جاذبية، يمكنهن الاقتراب من الرجال الذين لا نستطيع الوصول إليهم".
رفعت انتصار عينيها ببطء؛ ما الذي تقوله؟
"ستعملين معنا؛ ستذهبين إلى بعض الرجال، رجال الحكومة الشرعية، ستجعلينهم يثقون بكِ، ثم"...
"لا." الكلمة خرجت قبل أن تفكر.
"لا؟" أمالت أم زينب رأسها كطائر فضولي؛ "ألم تفهمي ما قلته لكِ؟ إن رفضتِ، فسنتركِ هنا إلى الأبد؛ لن يراكِ أحد، ولا أمك، ولا أبوك الكفيف، ولا أخوك المعاق".
"لا".
"سندمر سمعتكِ؛ سنقول إنكِ فعلتِ كل شيء باختيارك؛ سننشر صوركِ، سنقول إنكِ زانية، وإنكِ تاجرة مخدرات؛ سيتبرأ منكِ أهلكِ، وسيغلقون بابهم دونكِ".
"لا".
"لكن إن وافقتِ..." مدت يدها ورفعت ذقن انتصار بلطف مزيف؛ "إن وافقتِ، سنتركِ وشأنكِ؛ ستخرجين، وستعيشين حياتكِ؛ وحتى سنعطيكِ مالاً".

انتصار بصقت؛ لم تكن تبصق دماً، بل تبصق ألمها، تبصق كل ما تبقى من كرامتها في تلك اللحظة؛ البصاق لم يصل إلى أم زينب، بل سقط على الأرض، لكنه كان كافياً.

وجه أم زينب تغير؛ للحظة، ظهرت مشاعر حقيقية: غضب؛ غضب حقيقي؛ ثم عاد القناع.

"حسناً؛ اخترتِ الطريق الصعب".

عاد الضرب، لكن هذه المرة كان مختلفاً؛ لم يكونوا يضربونها للإيذاء فقط، بل للإذلال؛ مزقوا ملابسها، وتركوا جسدها العاري مرتعشاً في الزاوية الباردة؛ كانوا يصرخون في وجهها ألفاظاً لا تحتمل، كلمات لا يمكن قولها حتى لأكثر الأعداء حقارة.

بكت؛ بكت بمرارة الطفلة التي اختفت أمها فجأة في السوق المزدحم؛ بكت بمرارة العاشقة التي تخلى عنها حبيبها؛ بكت بمرارة كل النساء اللواتي عُذبنَ لأنهن كنّ جميلات، أو لأنهن كنّ حرّات، أو لمجرد أنهنّ كنّ موجودات.

توسلت؛ مدّت يديها المدميتين تجاههم، وحاولت أن تلمس أرجلهم، لكنهم كانوا يركلونها بعيداً.

"من فضلكم، أنا ما سويت شيء؛ أنا انسانة، أنا بنت، عندي أم، عندي أب، أرجوكم"...

لكنهم لم يتوقفوا.

وفي الغرفة المجاورة، كان والدها يسمع صوت ابنتها يعلو ثم يخفت، يعلو ثم يخفت، كموج البحر المتقلب؛ كان يريد أن يصرخ، أن يطلب منهم أن يقتلوه بدلاً منها، لكن صوته كان قد

خنقه الألم؛ كل ما استطاع فعله هو أن يهمس في الظلام: "يا رب، خلّصها؛ خلّص بنتي".

..؛ كانت الضربات تتوالى كالمطر، لا تعرف متى تتوقف، ولا متى تعود؛ جسدها تحول إلى لوحة من الكدمات الزرقاء والسوداء، ولسانها أصبح أخرساً من كثرة الصراخ الذي لم يعد يسمعه أحد؛ ثم في أحد الأيام، دخل عليها الرجل ذو البدلة الأنيقة مجدداً - سلطان زابن - لكن هذه المرة لم يكن وحيداً؛ كان معه رجل آخر، أصغر منه، يحمل في يده مصحفاً صغيراً، ويرتدي ثوباً أبيض ناصعاً، كأنه يتهيأ لصلاة العشاء.

سلطان جلس على الكرسي المعدني الذي كانوا يربطونها به، وأشار إليها أن تجلس على الأرض؛ جلست، أو بالأحرى تدحرجت إلى أسفل، لأن رجليها كانتا ترتعشان من الضعف؛ الرجل ذو الثوب الأبيض جلس إلى جانبها، وفتح المصحف، وبدأ يقرأ بصوت منخفض مترنم، كأنه يقرأ في مجلس عزاء.

"انتصار،" قال سلطان بصوته الهادئ الناعم، ذاك الصوت الذي كان يحمل كل السم في ابتسامته؛ "أنتِ امرأة جميلة، وهذا ليس عيباً؛ الجمال هبة من الله؛ لكن كيف تستخدمين هذه الهبة؟"

رفعت عينيها إليه، لكنها لم تنطق؛ كانت تعلم أن أي كلمة ستتحول إلى سبب جديد للضرب.

"نحن هنا لنقدم لكِ عرضاً،" تابع سلطان؛ "ليس عرضاً للإيذاء، بل عرضاً للتكفير؛ أنتِ أخطأتِ بحق نفسكِ، بحق

مجتمعكِ، بحق دينكِ؛ لكن هناك طريق للعودة؛ طريق إلى الجنة".

الرجل ذو الثوب الأبيض رفع بصره عن المصحف، ونظر إليها نظرة صارمة، كأنه يلقي عليها درساً في العقيدة؛ "الجهاد،" قال بصوت أجش، "ليس فقط بالسلاح؛ هناك جهاد أكبر؛ جهاد بالنفس، جهاد بالجسد".

انتصار شعرت بقشعريرة تسري في عمودها الفقري؛ كانت تعرف أين يتجه الحديث، لكنها كانت تأمل أن تكون مخطئة.

سلطان مد يده إليها، ورفع ذقنها بلطف مقيت، كمن يمسك بزهرة يريد أن يقتلعها من جذورها؛ "نحن نحتاج إلى نساء مثلكِ؛ نساء قادرات على الاقتراب من رجال الحكومة الشرعية، من المعارضين لنا، من الجواسيس الذين يتربصون بنا؛ أدخلي إليهم، اكسبي ثقتهم، ثم"...

سكت، تاركاً الفراغ ليكمل المعنى.

"ثم ماذا؟" همست انتصار، رغم أنها كانت تعرف الجواب.

"ثم افعلي ما تفعلينه طبيعياً؛ ولكن لهدف أسمى؛ ليس للشهوة، بل للجهاد؛ إن نمتِ مع رجل من أعداء الله، ليس زناً، بل هو عمل فدائي؛ أنتِ بذلك تقتلينه بأخلاقه، تسقطينه بضعفه، تخدمين الله والوطن".

الرجل ذو الثوب الأبيض أضاف، كأنه يشرح مسألة فقهية: "في الجهاد، الحلال يصبح حراماً، والحرام يصبح حلالاً؛ كل شيء

مباح في سبيل الله؛ النبي قال: الحرب خدعة؛ احتالي لهم، أوقعي بهم، فأنتِ بذلك تنقذين أرواح المؤمنين".
انتصار نظرت إليهما، إلى الثنائي المتناقض: واحد ببدلته الأنيقة كسياسي في البرلمان، وآخر بثوبه الأبيض كإمام في المسجد؛ وكأنهما وجهان لعملة واحدة، عملة من النحاس الأصفر المزيف.
"تريدون مني أن أكون..." وقفت، تتمايل على قدميها المرتجفتين، "عاهرة في سبيل الله؟"
سلطان ابتسم ابتسامة عريضة، كأنها قالت شيئاً مضحكاً؛ "لا، لا، ليست عاهرة؛ أنتِ مجاهدة؛ وهذا هو الأهم؛ نحن لا نطلب منكِ شيئاً إلا ما يرضي الله".
"وإذا رفضت؟"
الابتسامة اختفت فجأة من وجه سلطان؛ استبدلها ببرود قاتل؛ "إذا رفضتِ، فأنتِ عاهرة بكل المقاييس؛ عاهرة عاقّة، عاهرة كافرة؛ وإذا متِّ هنا، ستموتين كافرة، وسيكون مصيركِ النار".
توقف الرجل ذو الثوب الأبيض عن القراءة، وأغلق المصحف ببطء، ووضعه على حضنه؛ نظر إليها من تحت حاجبيه، وقال: "نحن نمنحكِ فرصة للتوبة، فرصة لتطهير نفسكِ؛ لكن إن أصررتِ على عصيان الله، فلن نستطيع أن نحميكِ من عذابه".
انتصار نظرت إليهما، إلى المصحف في يد الرجل، إلى البدلة الأنيقة لسلطان، إلى الجدران المطلية بالدماء الجافة، إلى روحها

المحطمة التي كانت تحاول التمسك بآخر خيط من كرامة؛ ثم ضحكت؛ ضحكة مريرة، خارجة من عمق الجرح الذي لا يلتئم.
"جهاد؟" قالت، وصوتها كان يرتجف؛ "تريدون مني أن أنام مع رجال، وتسمون هذا جهاداً؟ تريدون مني أن أدمر حياتي، وأدمر حياة غيري، وتسمون هذا إيماناً؟"
اقتربت منهما، خطوة واحدة، على رجليها المصابتين بالرعشة، ونظرت إلى سلطان مباشرة في عينيه.
"هل أنتم مجاهدين؟ أنتم قطاع طرق؛ أنتم تختبئون خلف الدين لتبرروا شهواتكم؛ الله ليس معكم، لأن الله لا يأمر بالزنا، ولا يأمر بالقتل، ولا يأمر بتعذيب الأبرياء".
كانت تلك اللحظة فارقة؛ شعرت بأنها لأول مرة منذ دخولها الفيلا، لم تكن ضحية؛ كانت تقاتل؛ ليس بقبضتها، بل بحقيقتها.
سلطان وقف ببطء؛ وجهه كان جامداً كالحجر، لكن عينيه كانتا تغليان بالغضب؛ مشى نحوها، ورفع يده، وضربها على وجهها ضربة قوية جعلتها تسقط على الأرض؛ ثم التفت إلى الرجل ذو الثوب الأبيض وقال:
"كما ترى، لا جدوى؛ هذه واحدة من أولئك الذين أعمى الله قلوبهم؛ انتهى العرض".
غادر الغرفة، وتبعه الرجل، لكن قبل أن يغلق الباب، التفت سلطان وقال:

"سنريكِ الجهاد الحقيقي؛ ليس الذي تظنينه، بل جهاد الجسد؛ جهاد الصبر على الألم؛ جهاد الانتظار؛ جهاد المعاناة؛ سنعلمكِ معنى الجهاد، يا ابنتي".

بقي صوته يتردد في الغرفة بعد أن اختفى، كأن الظل ترك أثراً ساماً في الهواء؛ انتصار ظلت جالسة على الأرض، تمسح الدم المتدفق من شفتها، وتنظر إلى الباب المغلق.

همست لنفسها: "الله يعلم أنني ما سويت شيء؛ والله يعلم أنهم يكذبون؛ الله يعلم"...

لكنها لم تكمّل الجملة؛ بدلاً من ذلك، وضعت يدها على قلبها، وشعرت بنبضه الخافت، ذلك النبض الذي كان يصر على الاستمرار رغم كل شيء؛ وقالت في قلبها:

"سأعيش؛ ليس لأنني أريد الحياة، بل لأنني لا أريد أن أمنحهم فرحة موتي".

## "المحاولة مرة أخرى"

## نار من نار

مرت أيام؛ أو ربما أسابيع؛ في ذلك المكان، كان الزمن يذوب كالثلج تحت الشمس؛ لم يعد هناك فرق بين النهار والليل، فالغرفة كانت دائماً مظلمة، والنوم كان مجرد إغماءات قصيرة بين الضربات.

في أحد الأيام - أو الليالي - دخل عليها رجل جديد؛ لم يكن كالباقين؛ كان يرتدي بدلة أنيقة، ونظارة طبية ذات إطار ذهبي، ويحمل ملفاً تحت إبطه؛ كان وجهه يبدو مفكراً، كأستاذ جامعي

في محاضرة؛ لكن عينيه كانتا حادتين، تلتقطان كل تفاصيلها، تنظران إليها كحشرة تحت المجهر.
"أنا سلطان زابن".
لم تقل شيئاً؛ كانت تجلس في الزاوية، ترتدي ما تبقى من ملابسها الممزقة، تحاول تغطية جسدها بقدر ما تستطيع.
"أنتِ تريدين الخروج من هنا؟"
رفعت عينيها إليه، دون أن تنطق.
"هناك طريقة واحدة؛ أن تعترفي".
"ما أعرف شيء".
"لا تقولي ذلك؛ اعترفي بما نريد؛ قولي إنكِ زانية، وإنكِ تتعاطين، وإنكِ تجسستِ لصالح الحكومة الشرعية؛ اعترفي، وسنطلق سراحكِ".
"إذا اعترفت بشيء ما عملته، ستكون الحقيقة ضدي؛ سأبقى هنا مدى الحياة".
هز سلطان رأسه، كمن يتعامل مع طفلة عنيدة.
"أنتِ لستِ هنا لأنكِ فعلتِ شيئاً؛ أنتِ هنا لأننا نستطيع أن نفعل بكِ ما نشاء؛ هل تفهمين؟ أنتِ مجرد رقعة شطرنج؛ إذا أردنا أن نحركِ، سنحركِ؛ إذا أردنا أن نكسركِ، سنكسركِ".
وقف وبدأ يمشي في الغرفة، بخطوات ثابتة.
"لدينا فيديوهات؛ لدينا اعترافات مزورة؛ لدينا شهود زور؛ القانون هنا هو ما نقرره؛ أنتِ ليس لديكِ أي خيار".

فكرت انتصار في ذلك؛ في الفيديوهات التي سيسجلونها لها وهم يضربونها، في الاعترافات التي سينشرونها باسمها، في السمعة التي سيدمرونها؛ لكنها تذكرت شيئاً: هي لم تفعل شيئاً؛ حقيقتها الوحيدة كانت أنها بريئة.

"موت ولا أذل".

الكلمات خرجت هامسة؛ لكنها كانت كافية.

سلطان توقف عن المشي؛ نظر إليها بحساب، ثم ابتسم ابتسامة باردة.

"حسناً؛ سنرى كم ستصمدين".

نقلوها إلى السجن المركزي.

كان السجن مختلفاً عن الفيلا؛ هنا كان هناك العديد من النساء، مئات منهن؛ بعضهن كانت تهمهن بسيطة، مثل التظاهر دون إذن، أو كتابة منشور على فيسبوك، أو مجرد الظهور بوجه مكشوف في الشارع؛ لكن أكثرية هؤلاء النساء كانت تهمهن كذباً، ملفقةً، تماماً مثل تهمها.

في اليوم الأول في السجن، قالت لها إحدى السجينات، وهي امرأة في الأربعين من عمرها، اسمها فاطمة:

"لا تنظري في عيون الحراس؛ ولا تنظري في عيون الزينبيات؛ اخفضي بصركِ، وكوني كأنكِ غير موجودة".

لم تفهم انتصار حينها؛ لكنها فهمت لاحقاً؛ الزينبيات - تلك النسوة اللواتي يديرن سجن النساء باسم الدين - كنّ أشد قسوة

من الرجال؛ ربما لأنهن كنّ يثبتن ولاءهن، أو ربما لأنهن كنّ يكرهن الجمال في أنثى أخرى.

في اليوم الثالث، دخلت الزينبية الأولى إلى زنزانتها؛ كانت امرأة قصيرة، ممتلئة، تلبس عباءة سوداء سميكة رغم الحر؛ وجهها كان متجعداً، وعيناها صغيرتان وحادتان.

"انتصار الحمادي".

"نعم".

"ستأتين معي".

أخذتها إلى غرفة صغيرة في نهاية الممر؛ كانت الغرفة خالية تماماً، ما عدا مقعدين خشبيين وطاولة صغيرة؛ على الطاولة، كان هناك مصحف وصورة لعبدالملك الحوثي.

"اجلسي".

جلست؛ الزينبية جلست مقابلها، وأخرجت من جيبها عصا صغيرة، أقصر من تلك التي استخدمت في الفيلا، لكنها بدت أكثر إيلاماً.

"سأقرأ لكِ بعض الآيات؛ ستسمعين، وسترددين؛ وإذا لم ترددي، سأضربكِ".

بدأت تقرأ؛ كانت الآيات مختارة بعناية، آيات عن العقاب، عن النار، عن النساء الفاسقات؛ لكنها تقرأها بطريقة غريبة، كأنها تنتظر أي خطأ لتبرر الضرب.

انتصار حاولت أن تردد، لكنها لم تكن تعرف بعض الكلمات؛ ضربة؛ ثم أخرى؛ ثم أخرى.

"أنتِ عاهرة؛ كل العاهرات يذهبن إلى النار؛ هل تريدين الذهاب إلى النار؟"
"لا".
"إذاً توبي؛ اعترفي بذنبكِ؛ الله يغفر للعاهرات إذا تبن".
"ما لي ذنب".
الضربة كانت على وجهها هذه المرة، جعلت شفتها تتشقق مجدداً، ونبع الدم بغزارة.
"لن تخرجي من هنا حتى تعترفي؛ كل النساء هنا يعترفن في النهاية؛ إما الاعتراف، أو الموت".
كانت وجبات الطعام - إن أمكن تسميتها كذلك - عبارة عن علبة فاصوليا باردة، ورغيف خبز يابس، وكوب ماء مالح؛ في بعض الأيام، كانوا ينسون إحضار الطعام، فنموت من الجوع؛ لكن الجوع كان أفضل من الضرب.
في الزنزانة، كانت تنام على أرضية إسمنتية باردة، لا وسادة، لا بطانية؛ كانت ترتجف من البرد ليلاً، ومن الحر نهاراً؛ لم يكن هناك تهوية، ورائحة العرق والدم والبول كانت تملأ المكان كأنها كيان حي يتنفس معها.
لكن الأسوأ من كل ذلك، كان الدروس؛ الدروس الإجبارية عن عبدالملك الحوثي، عن الثورة، عن الجهاد، عن فضيلة الموت في سبيل الله؛ كانوا يجبرونها على الجلوس لساعات تسمع خطابات مسجلة، ثم يختبرونها فيما سمعت؛ وإن أخطأت، أو بدا عليها الملل، أو تجرأت على النوم، كان العقاب الضرب.

في أحـد الأيـام، أقـاموا درسـاً خاصـاً؛ أحضرـوا صـوراً لهـا مـن إنسـتغرام، صـوراً كانـت قـد نشرـتها وهي ترتـدي فسـاتين ملونـة، وشـعرها منسـدلاً عـلى كتفيهـا؛ عرضـوها عـلى شاشـة صـغيرة في غرفة الاجتماعات، أمام جميع السجينات.

"انظروا إلى هذه العاهرة؛ انظروا كيف تفضح جسدها؛ هذا هو عدو الله؛ هذه هي التي تدمر المجتمع".

بـدأت السـجينات ينظـرن إليهـا؛ بعضـهن بنظـرات شـفقة، وبعضهن بفضول، وبعضهن بخوف؛ لكن الأغلبية نظرت إلى الأرض، خائفة من أن تشبه بها.

ثم صاح المدير: "انتصار، قومي؛ قولي كلمة".

نهضت بصعوبة؛ كانت ركبتاها ترتجفان من الضعف.

"قولي أنكِ نادمة".

سكتت.

"قولي"!

"أنا..." بدأت، لكن الكلمات توقفت؛ كيف تقول إنها نادمة على شيء لم تفعله؟ كيف تعترف بجريمة هي ضحية فيها؟

"أنا نادمة لأنني..؛ لأنني"...

"لأنكِ عاهرة"!

سكتت؛ نظرت إلى الصور على الشاشة، إلى وجهها المبتسم، إلى حياتها السابقة التي بدت الآن كحلم بعيد.

"أنا نادمة".

الكلمات خرجت كهمس؛ لكنها كانت كافية؛ لم تصدقها، لكنها قالتها.
الزينبية اقتربت منها، ورفعت يدها، وضربتها على خدها ضربة خفيفة، كأنها تقول: "هذا كان يجب أن يحدث منذ البداية".
"حسناء؛ الآن ستكونين مؤمنة؛ سنخلع عنكِ ثياب الكفر، ونلبسكِ ثياب الإيمان".
بعد ذلك الدرس، شيء تغير في انتصار؛ ليس أنها استسلمت، لكنها بدأت تشعر بأن جزءاً منها كان يموت، جزءاً كان يحلم بأضواء الشهرة، بالأزياء الملونة، بالتمثيل، بالحرية؛ ذلك الجزء كان يذبل كزهرة في الصحراء.
حاولت الانتحار لأول مرة بعد الحكم الابتدائي؛ عندما سمعت القاضي ينطق بالكلمات: "خمس سنوات بتهمة ارتكاب فعل فاضح وحيازة المخدرات." سمعت صوت أمها يبكي من بعيد، وصوت والدها يتأوه كأن الضربة وقعت عليه هو؛ لم تسمع سوى تلك الأصوات، ثم صمت.
في الليل، مزقت ثوبها إلى شرائح، وربطتها معاً، وعلقتها من نافذة الزنزانة الصغيرة؛ وقفت على كرسي متصدع، ووضعت الحبل حول عنقها، ثم ركلت الكرسي.
شعرت بالاختناق، بالألم، بالنور الذي يغادر عينيها؛ لكن الحبل كان رديئاً، والشرائح الممزقة لم تتحمل وزنها؛ انكسر الحبل، وسقطت على الأرض، تتخبط كسمكة خارجة من الماء.

السجينات هرعن إليها؛ حملنها، وصرخن طلباً للمساعدة؛ رغم كل شيء، هنّ كنّ الوحيدات اللواتي لم يتخلين عنها؛ كل امرأة في ذلك السجن كانت تعرف أن مصيرها قد يكون مثل مصير انتصار؛ في الغد، ربما تكون هي الأخرى معلقة بحبل متهالك.

في المرة الثانية، حاولت شنق نفسها بحبل أكثر متانة؛ كانت قد خبأته تحت المرتبة الإسفنجية المتسخة التي كانت تنام عليها؛ في منتصف الليل، عندما كان كل شيء هادئاً، نفذت خطتها؛ لكن إحدى السجينات - يمنى، كانت اسمها - كانت مستيقظة، رآها، وصرخت.

"انتصار! لا"!

سحبوها من الحبل، وأنقذوها مجدداً؛ لكن الإدارة عاقبتها بوضعها في زنزانة انفرادية؛ تلك الزنزانة كانت أشد كوابيسها؛ متر في متر، لا ضوء، لا صوت، لا شيء؛ فقط الجدران الباردة، وظلها الذي بدا كشريك في الجنون.

أما المرة الثالثة، فكانت مختلفة؛ جمعت كل الحبوب التي كانت تتناولها - المهدئات والمنومات التي كانوا يعطونها إجباراً - وخبأتها في كفها طوال اليوم؛ في المساء، بلعتها كلها دفعة واحدة، ثم انتظرت.

لم تنتظر الموت فقط، بل انتظرت الخلاص؛ كانت تعرف أنها ستذهب إلى النار، كما كانوا يخبرونها دائماً؛ لكن فكرت: "النار أفضل من هذا الجحيم؛ على الأقل في النار، أنا أعرف أن الله هو الذي يعذبني، وليس بني آدم".

لكن النوم لم يأتِ؛ بدلاً من ذلك، جاء القيء، والدوخة، والألم المبرح؛ وجدوها تتخبط على الأرض، شاحبة، تكاد تلفظ أنفاسها؛ نقلوها إلى المستشفى، وأنقذوها مجدداً.
بعد كل محاولة، كانت تسألها الزينبية: "لماذا تريدين الموت؟ أليس الموت هروباً؟ أليس الجهاد في سبيل الله هو الموت الشريف؟"
كانت تهمس: "الموت أهون".

## عندما تصبح الحقيقة غريبة

مرت السنوات كالظلال المتلاحقة؛ انتصار لم تعد تعد الأيام، بل أصبحت تعد المحاولات؛ محاولات البقاء، محاولات النسيان، محاولات الإيمان بأن هناك يوماً آخر سيأتي.
في السنة الرابعة، حدث شيء غير متوقع؛ جاءتها رسالة من والدتها عبر إحدى السجينات التي أفرج عنها؛ كانت رسالة قصيرة، مكتوبة على ورقة صغيرة بالية:
"بنتي، ما زلنا هنا؛ لم نتركِ؛ سنبقى حتى تعودي؛ لا تستسلمي".
قرأت الكلمات مراراً وتكراراً؛ كل كلمة كانت كقطرة ماء على صحراء روحها؛ أمسكت الورقة، وضغطتها على صدرها، وبكت؛ بكت لأول مرة دون ألم، بل بفرح خافت.
في السنة الخامسة، بدأت الأمور تتغير؛ ربما بسبب الضغط الدولي، أو بسبب تدخل المنظمات الحقوقية، أو ربما لأن الحوثيين شعروا أن قضيتها أصبحت عبئاً؛ طلبوا منها التوقيع

على تعهدات: بأن لا تسيء لحكومة صنعاء، وأن لا تظهر في الإعلام، وأن لا تغادر صنعاء دون إذن.
وقعت؛ لم تقرأ كل التفاصيل، لكنها وقعت؛ كانت كأي سجين يخرج بعد سنوات، مستعداً لتوقيع أي شيء من أجل الحرية.
لكن الخروج لم يكن فورياً؛ مر شهران وهما يؤجلون، كل يوم يقولون: "غداً"، وكل غدٍ لا يأتي؛ أصبحت تنتظر طويلاً، تنظر من نافذة زنزانتها، وتحلم بالشارع، بالشمس، بالهواء النظيف.
ثم في يوم السبت، الساعة الرابعة عصراً، نادوها.
"انتصار، جهزي أغراضكِ؛ أنتِ خارج".
لم تصدق؛ ظنت أنها وهم، أو حلم من أحلامها المتكررة؛ لكن الحلم لم ينتهِ؛ قادوها عبر الممرات الطويلة، عبر البوابات الحديدية، عبر حراس ينظرون إليها بنظرات لا مبالية.
وخرجت.
الشمس كانت عمياء؛ لم تكن قد رأت الشمس الحقيقية منذ خمس سنوات؛ شعرت بها على وجهها كلمسة محبة، كاحتضان أم فقدته طويلاً؛ تنفست الهواء، وكان الهواء حلواً كالفاكهة الناضجة.
لكن الفرح لم يكن كاملاً؛ الخوف كان يلتصق بها كالظل؛ كانت تعرف أن التعهدات التي وقعتها كانت قيوداً جديدة، وأن الحرية التي نالتها كانت مشروطة، هشة، كزجاج رقيق.

ذهبت إلى منزلها؛ أمها فتحت الباب، ونظرت إليها للحظة، وكأنها لا تصدق أن ابنتها تقف أمامها؛ ثم انهارت في البكاء؛ احتضنتها بقوة، كأنها تخشى أن تختفي مجدداً.

أبوها كان جالساً في الزاوية، أصم، أعمى، لكنه شعر بوجودها؛ مد يده، ولمس وجهها، وبكى؛ بكى بصمت رجل فقد بصره لكنه لم يفقد حبه.

"بنتي، بنتي"...

لم تستطع أن تتكلم؛ كل ما كانت تستطيع فعله هو البكاء معهم.

لكن الهروب الحقيقي لم يكن قد بدأ بعد؛ كانت صنعاء لا تزال تحت سيطرة الحوثيين، وكانت تهديداتهم تلاحقها حتى في منزلها؛ في الليل، كانت تسمع أصواتاً غريبة، خطوات في الشارع، محركات توقف فجأة؛ كانت تخاف أن يعودوا ليأخذوها مجدداً.

بدأت تخطط للهرب؛ كانت تعرف أن الطريق الوحيد للحرية هو الخروج من صنعاء، ثم من اليمن كلها؛ تواصلت مع مهربين، دفعوا لها مبالغ طائلة، ووافقوا على نقلها إلى المخا.

الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر؛ نقاط تفتيش الحوثيين كانت في كل مكان، وكانت تعرف أنه إن تم اكتشافها، ستعود إلى السجن، وربما لن تخرج مجدداً.

نامت في سيارة مزدحمة، تحت أغطية، متنكرة بزي امرأة ريفية؛ كانت ترتجف في كل نقطة تفتيش، تسمع أصوات الحراس وهم يتفحصون المركبات؛ لكن القدر كان إلى جانبها، وتمكنت من الوصول إلى المخا.

من المخا إلى عدن، ثم إلى مصر؛ كل خطوة كانت كالولادة من جديد؛ كانت تترك وراءها جزءاً من روحها في كل مكان؛ لكنها كانت تعرف أن النجاة كانت ثمناً تستحق دفعه.

في القاهرة، بدأت حياتها الجديدة؛ لكنها لم تكن جديدة بالكامل؛ كانت تحمل معها كل الذكريات، كل الندبات، كل الأصوات التي لا تزال تتردد في رأسها؛ كانت تستيقظ في الليل مرتعشة، تظن أنها ما زالت في الزنزانة، تظن أن الضرب سيأتي في أي لحظة.

لم تجد عملاً، ولم تجد دعماً نفسياً؛ كانت المنظمات الدولية تتحدث عن قضيتها، لكن الدعم الفعلي كان ضئيلاً؛ كانت تعيش في غرفة صغيرة، مع زميلة لها من اليمن، تحاول أن تعيد بناء حياتها من الصفر.

في أحد الأيام، جلست أمام المرآة، ونظرت إلى وجهها؛ كان وجهها لا يزال جميلاً، رغم الندبات؛ لكن عينيها كانتا مختلفتين؛ كانتا عينين شهدتا ما لا يمكن وصفه.

"أنا هنا؛ ما زلت هنا".

همست لنفسها؛ ثم تذكرت كل النساء اللواتي تركنهنّ وراءها؛ السجينات اللواتي كنّ معها، واللواتي ما زلن في السجن؛ تذكرت فاطمة، ويمنى، وسعاد، وآمنة، ومئات الأخريات؛ لم تكن قد انتصرت حقاً، لأنهنّ لم ينتصرن بعد.

"سأتحدث؛ سأخبر العالم؛ ليس عني فقط، بل عنهنّ؛ عن كل امرأة عُذبت لمجرد أنها كانت حرة".

في اللقاء التلفزيوني، كانت ترتجف؛ المذيعة جلست أمامها، ونظرت إليها بعينين مليئتين بالتعاطف؛ بدأت الأسئلة، وبدأت الإجابات؛ لكن الكلمات كانت تتوقف أحياناً، وقد غصت بالدموع.

"ماذا حدث لكِ في الفيلا؟"

صمتت؛ نظرت إلى كاميرا التلفزيون، ورأت انعكاس وجهها في العدسة الزجاجية.

"الضرب؛ ضرب لا يمكن وصفه؛ كل يوم، كل ساعة؛ كانوا يضربونني حتى أفقد الوعي، ثم يوقظونني ليضربوني مجدداً".

"لماذا كانوا يضربونكِ؟"

"لأنني رفضت أن أعمل معهم؛ رفضت أن أكون أداة للإيقاع بآخرين؛ عرضوا عليّ..؛ عرضوا عليّ أن أنام مع رجال لتصويرهم في أوضاع مخلة، مقابل إطلاق سراحي؛ رفضت".

"هل حاولتِ الانتحار؟"

"نعم؛ ثلاث مرات؛ الموت كان أفضل من هذا العذاب".

"وماذا عن النساء الأخريات في السجن؟"

بكت؛ بكت طويلاً؛ ثم قالت:

"أنا خرجت، لكن هناك آلاف غيرهن؛ نساء عُذبنَ، نساء قُتلنَ، نساء انتحرنَ؛ لا أحد يتحدث عنهنّ؛ لا أحد يسمع صوتهنّ".

في نهاية المقابلة، نظرت إلى الكاميرا مباشرة، وقالت:

"أنا لا أريد شيئاً لنفسي؛ أريد فقط أن يعرف العالم؛ هؤلاء ليسوا حراساً، ليسوا قضاة، ليسوا مسلمين حتى؛ هؤلاء قطاع طرق،

يلبسون ثياب الدين ويغتصبون أرواحنا؛ من فضلكم، لا تصمتوا؛ الصمت قتل؛ الصمت هو جريمتهم الثانية".

## بعد المقابلة

تلقت آلاف الرسائل؛ بعضها دعم، وبعضها شكر، وبعضها ألم؛ لكن أكثر الرسائل تأثيراً كانت من امرأة اسمها نادية، كانت تكتب من داخل اليمن:

"انتصار، أنتِ لستِ وحدكِ؛ نحن هنا؛ كلنا هنا؛ كل امرأة يمنية تعرف أن مصيرها قد يكون مثل مصيركِ؛ لكنكِ أعطيتنا أملاً؛ أنتِ أثبت أن الصوت لا يموت، حتى لو سجنوا الجسد".

انتصار قرأت الرسالة، ووضعت يدها على قلبها؛ كانت تعرف أن معركتها لم تنتهِ؛ لكنها كانت تعرف أيضاً أنها لم تعد وحيدة.

في تلك الليلة، نامت لأول مرة دون كوابيس؛ لم تكن سعيدة، لكنها كانت هادئة؛ السلام الذي وجدته لم يكن من النوع الذي يملأ الروح فرحاً، بل كان من النوع الذي يسمح لك بالتنفس رغم كل شيء.

قالت لنفسها قبل أن تغفو:

"ربما لم أعد أنتصر بالمعنى الذي كنت أظنه؛ لكنني ما زلت هنا؛ وما زلت أتكلم؛ هذا في حد ذاته انتصار".

في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكرة؛ نظرت من نافذة غرفتها الصغيرة في القاهرة، ورأت الشمس تشرق فوق نهر النيل؛ كانت شمساً جديدة، مختلفة عن شمس صنعاء، لكنها كانت جميلة.

أخرجت دفتراً صغيراً، وبدأت تكتب؛ لم تكن تكتب مذكرات، بل رسالة إلى النساء اللواتي تركتهنّ خلفها:

"أيتها الأخوات،

لا أعرف إن كنّتنّ ستقرأنَ هذه الكلمات يوماً؛ لكنني أكتبها كما لو أنكنّ هنا، إلى جانبي.

ما فعلوه بنا ليس نهاية؛ هو بداية؛ بداية وعي، بداية غضب، بداية تغيير؛ نحن لسنا ضحايا، نحن شهود؛ شهدنا ما لا يمكن أن ينسى، وما لا يجب أن يغفر.

سأستمر في الحديث عنكنّ؛ سأجعل العالم يعرف أسمائكنّ؛ كل واحدة منكنّ لها قصة، وكل قصة تستحق أن تُروى.

لا تستسلمنّ؛ الموت سهل، لكن الحياة أصعب؛ والحياة هي انتصارنا الوحيد.

أختكنّ،

انتصار".

غلّقت الدفتر، ووضعته في حقيبتها؛ كانت تعرف أن رحلتها طويلة، وأن هناك الكثير لتقوله؛ لكنها كانت مستعدة.

ففي النهاية، ليست الحرب هي من تحدد المنتصر؛ المنتصر هو من يبقى، ويتحدث، ولا ينسى.

وانتصار كانت قد بقيت؛ وكانت تتحدث؛ ولم تنسَ.

# ثلاثية الأقبية الصامتة

## "سحر الخولاني... صوتٌ دُفن حياً في سراديب صنعاء"

### عندما يكون الراتب جريمة والجوع تمرداً

صنعاء، العاشرة من سبتمبر ٢٠٢٤. الساعة الثامنة مساءً، حين يتحول الضوء إلى ظلال ثقيلة تلتصق بالجدران كأشباح تنتظر. كان الهواء كثيفاً برائحة الغبار والبارود الخفي، تلك الرائحة التي أصبحت عطر المدينة الدائم. سحر الخولاني كانت تجلس في غرفة معيشتها الصغيرة، تنظر إلى أطفالها الثلاثة وهم يلعبون على السجادة البالية. عمرها ستة وثلاثون عاماً، وجهها يحمل ملامح المرأة التي رأت الكثير، عيناها تعكسان إرهاقاً لا يمحوه النوم.

كانت تمسك بهاتفها، تقلب الصفحات، تتوقف عند صورة لابنتها الكبرى التي كانت قد التقطتها قبل أيام. ابتسمت للحظة، ثم انطفأت الابتسامة عندما تذكرت كلمات ابنتها: "ماما، ليه ما عندي كرسي في المدرسة؟ ليه المشرفة قالت البنات الحوثيات لهن كراسي خاصة وانا لا؟"

كانت تلك الكلمات هي الشرارة. ليست الشرارة التي تشعل الثورة، بل الشرارة التي تضيء الحقيقة في عتمة الظلم. سحر لم تستطع أن تبتلع تلك الكلمات. كيف لطفلة في مقتبل العمر أن تفهم التمييز قبل أن تفهم معنى العدالة؟ كيف لمشرفة في

مدرسة أن تمنح كرسياً خاصاً لابنتها وتجعل طفلة أخرى تقف كالعقاب؟

هزت رأسها، وحاولت أن تتجاهل الألم. لكن الألم كان كالجمر تحت الرماد، يشتعل كلما تنفست.

نظرت إلى الساعة. الثامنة والربع. كان ينبغي أن تحضر العشاء لأطفالها، لكن الخبز كان قد نفد، والمال لم يعد يكفي لشراء أكثر من وجبة واحدة في اليوم. وظيفتها كإعلامية متوقفة، وراتبها الذي لم يصرفه الحوثيون منذ ثماني سنوات كان مجرد رقم في سجل منسي.

"ماما، أنا جوعان".

صوت ابنها الأصغر كان ضعيفاً، كأنه يعتذر عن جوعه. نظرت إليه، وإلى عينيه الكبيرتين اللتين كانتا تنظران إليها كمن ينتظر معجزة. لكنها لم تكن تملك معجزات. كانت تملك فقط صوتاً، وقلمها، وكاميرا هاتفها المتواضعة.

جلست على الأرض بجانبه، وضمت رأسها إلى صدره. همست: "بكرة يا حبيبي، بكرة ربنا يفرجها".

لكنها كانت تعرف أن بكرة لن يأتي ما لم تتكلم. ما لم تكسر حاجز الصمت الذي زرعه الحوثيون في حناجر الناس. ما لم تقل ما لا يجرؤ الآخرون على قوله.

فتحت تطبيق التسجيل على هاتفها. كانت تفعل ذلك كثيراً في الليالي التي لا تستطيع النوم فيها، حين يتحول صمت الغرفة إلى

جدار ثقيل يضغط على صدرها. تحدثت بهدوء، بذاك الصوت الذي كان يصدح في أثير الإذاعة قبل سنوات:
"قطعت رواتبنا. ثماني سنوات، ونحن ننتظر. أطفالي جوعى، ومعلموهم هاجروا، والزينبيات أخذوا أماكنهم. من المسؤول؟ المشرفون الفاسدون الذين يدّرسون أبناءهم في المدارس الخاصة بينما أطفالنا يتعلمون الجوع".
توقفت. كانت تعرف أن هذه الكلمات قد تكلفها الكثير. لكن الصمت كان يكلفها أكثر.
"سأرسل هذا المقطع إلى صديق. إن حدث لي شيء، فليُنشر. ليكن صوتي آخر ما يموت".
حفظت التسجيل، وأرسلته. ثم نامت، لكن النوم كان كالغرق في بحر من الكوابيس.
الثالثة فجراً. أو ربما الرابعة. لم تكن تعرف بالضبط، لأن الوقت في تلك اللحظة لم يعد له معنى. ما أيقظها كان صوتاً ثقيلاً كصخرة تهوي على الباب. لم يكن طرقاً، بل اقتحاماً. الخشب ارتطم بالجدار، وتناثر الشرر في الظلام.
وقفت، والقلب ينبض في حلقها. رأت وجوهاً لا تعرفها، ترتدي زياً عسكرياً، تحمل سلاحاً كأنها في ساحة حرب. لكنها ليست ساحة حرب. إنها غرفة نوم أطفالها.
"سحر الخولاني؟"
لم تجب. لكنها نظرت نحو سرير أطفالها الذين استيقظوا على الضجيج، عيونهم مذعورة، أجسادهم ترتجف. ابنها الأكبر

حاول أن يصرخ، لكن أحد الرجال وضعه على الأرض بقسوة، وغطى فمه بكفه.
"اطلعينا معكِ".
حاولت أن تتحدث، أن تسأل، لكن الصوت توقف في حلقها. أمسكوا بها من ذراعها، وقادوها عبر الممر الضيق. سمعت صوت ابنتها يصرخ: "ماما! خذوني معك!" لكن الصراخ كان يخفت كلما ابتعدت.
نظرت إلى الوراء للحظة. رأت أطفالها الثلاثة واقفين في منتصف الغرفة المظلمة، يبكون بصمت، كأنهم يعرفون أن أمهم لن تعود.
كان آخر ما سمعته قبل أن تغلق السيارة بابها الحديدي: صوت بكاء ابنتها، ذلك البكاء الذي لا يشبه أي بكاء آخر، بكاء الطفلة التي تفقد أمها في ليل صنعاء البارد.

**العنوان الثاني: "الزينبيات في الأقبية... والتعذيب بلا حدود"**
**حين تصبح النساء جلاداتٍ لنساء أخريات**

الزنزانة كانت كالحلم السيئ الذي لا ينتهي. متر في مترين، لا نافذة، لا ضوء سوى مصباح خافت يتدلى من السقف كعنكبوت زجاجي. الجدران كانت مبللة بالرطوبة، ورائحة العفن والبول والدم كانت تتشابك في الهواء كأنها كائن حي يتنفس.
في اليوم الأول، لم يفعلوا بها شيئاً. تركوها في الزنزانة وحدها، بلا طعام، بلا ماء، بلا أي شيء سوى صوت أفكارها المتلاطمة.

كانت تسمع من بعيد صراخاً خافتاً، بكاءً مكتوماً. كانت تعرف أنها ليست الوحيدة.

في اليوم الثالث، جاءوها. دخلت امرأة ترتدي عباءة سوداء، وجهها مغطى بالنقاب، ولا يظهر منها سوى عينين صغيرتين حادتين. خلفها، وقفت امرأتان أخريان، تحملان عصياً مطاطية.

"أنا زينبية فاطمة. أنتِ سحر الخولاني، الإعلامية الخائنة".

رفعت سحر عينيها. كانت قد جفت دموعها، وقلبها كان قد توقف عن الخوف. الآن كان هناك فقط صمت، وصبر لم تكن تعرف أنها تملكه.

"عندي رسالة لكِ من القيادة. توبي، واعترفي بأنكِ تجسستِ لصالح الخارج، واعدي بعدم العودة إلى النشاط مرة أخرى. سأطلق سراحكِ".

"ما عندي شيء أعترف به".

"المخابرات عندها أدلة. رسائلك، تغريداتك، اتصالاتك. أنتِ عميلة".

"أنا إعلامية. وأم. فقط".

الزينبية اقتربت، ورفعت عصاها. الضربة الأولى لم تكن على جسدها، بل على روحها. قالت بصوت هادئ، كمن يقرأ درساً:

"أطفالكِ بخير. لكن لا نعدكِ بأن يبقوا كذلك".

كانت تلك الكلمات أشد من العصا. سحر شعرت كأن قلبها يقبض بيد باردة. حاولت أن تنهض، لكن الحبال منعتها.

"اتركوا أطفالي، أرجوكم، هم ما لهم ذنب".

"هـم ذنبـكِ أنـتِ. كنـتِ ستصـمتين، لكنـكِ اخـترتِ الكـلام. اختيارك، وكانت عواقبه".

الأيام تحولت إلى أسابيع، والأسابيع إلى أشهر. كانت الزينبيات يأتين كل يوم، يضربنها، يهينهنها، يسألنها أسئلة لا إجابات لها. ثم يتركونهـا في الظـلام، وحيـدة، مـع ذكريـات أطفالهـا الـتي كانـت تتغذى على ألمها.

في أحـد الأيـام، دخلـت الزينبيـة وفي يـدها صـورة. صـورة لابنتهـا الكبرى، وهي جالسـة في المدرسـة عـلى كـرسي جديـد. ابتسـمت سحر للحظة، ظنت أنها رسالة طمأنة.

لكـن الزينبيـة قالـت: "كـرسي ابنتـكِ. الـذي أخذتـه مـن طفلـة أخـرى. هـل أنـتِ سـعيدة؟ هـذا مـا فعلتِه باعتراضـكِ. أنـتِ مـن سببت الظلم".

سـحر نظـرت إلى الصـورة، إلى وجـه ابنتهـا الـذي كان خالياً مـن الفـرح. كانـت تعـرف أن ابنتهـا لـم تكـن سـعيدة بـذلك الكـرسي. كانت تريد فقط أن تعود أمها.

"أنا ما سويت شيء".

"أنـتِ سـويتِ الكثير. لـو التزمـتِ الصمت، لكنـتِ الآن في بيتـكِ. لكنكِ اخترتِ المعارضة".

في الشـهر السـادس، في الخـامس والعشـرين مـن ينـاير ٢٠٢٥، أحالوها إلى النيابة الجزائية. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيهـا وجهـاً جديـداً منـذ سـتة أشـهر. قـاضٍ في منتصـف العمـر،

يرتـدي نظـارة طبيـة، ينظـر إليهـا كمـن ينظـر إلى ملـف، لا إلى إنسانة.
"سـحر الخـولاني، متهمـة بالتخـابر مـع دول أجنبيـة، والإسـاءة للثورة، ونشر الفساد".
نظـرت إليـه. كانـت تريـد أن تضـحك، لكـن ضـحكتها كانـت قـد ماتت في الأقبية.
"التخـابر؟ أنـا أتحـدث عـن الجـوع، عـن الرواتـب، عـن أطفـالي الذين ينامون جوعى. هذا تخابر؟"
القاضي رفع حاجبيه. "القانون سيقرر. أنتِ الآن موقوفة لدينا".
"قانونكم؟ قانون الزينبيات؟ قانون من يضرب النساء بأيديهن ويقول لهن إنها تربية؟"
صـمت القـاضي لحظـة. ثـم قـال بصـوت مـنخفض: "انتـبهي لكلامكِ، فقد يكون دليلاً إضافياً عليكِ".
في تلك اللحظة، أدركت سحر شيئاً. لم تكن محاكمة، بل كانت مسرحية. كل شيء كان مكتوباً مسبقاً، والقاضي كان مجرد ممثل يؤدي دوراً في مسرحية العبث التي يسمونها عدالة.

## "فاطمة العرولي

**حين يكون المنشور في "تويتر" جريمة يعاقب عليها بالإخفاء**

كانت فاطمة العرولي، تلك المرأة التي قضت حياتها تدافع عن حقـوق الآخـرين، تجلـس في مكتبهـا الصـغير في صـنعاء. رئيسـة منظمة الموئل للتنمية الحقوقية، ورئيسة مكتب قيادات المرأة العربية في اليمن التابع لجامعة الدول العربية. لم تكن مجرد

ناشطة، بل كانت صوتاً لمن لا صوت لهم، خصوصاً في تعز والبيضاء، حيث كان الحوثيون يشنون حملاتهم الأكثر وحشية ضد الأطفال والنساء.

في صباح يوم من أيام أغسطس ٢٠٢٦، كتبت تغريدة على حسابها في "تويتر". لم تكن تغريدة طويلة، ولا مثيرة، بل كانت مجرد كلمة حق في زمن أصبحت فيه كلمة الحق جريمة:

"أين حقوق أطفال تعز؟ أين النساء في البيضاء؟ من يوقف هذه الانتهاكات؟"

لم تكن تعلم أن تلك الكلمات القليلة ستغير كل شيء. بعد ساعات، دوت طرقات عنيفة على باب منزلها. لم تكن طرقات زوار، بل طرقات اقتحام. رجال ملثمون، بأسلحة ثقيلة، دخلوا منزلها كما لو كانوا يغزون مدينة معادية.

"فاطمة العرولي؟"

وقفت، محاولة أن تبدو هادئة رغم أن قلبها كان يرتجف. "نعم، أنا".

"معنا أمر بالقبض عليكِ. اخرجي".

"لماذا؟ على أي أساس؟"

"سؤال لا يليق بكِ. أنتِ تعرفين لماذا".

لم تقاوم. كانت تعرف أن المقاومة ستجعل الأمر أسوأ. مشت معهم عبر الممر، ورأت جيرانها ينظرون من نوافذهم بخوف، كأنهم يشاهدون جريمة يعرفون أنهم سيكونون ضحاياها يوماً ما.

في جهاز الأمن والمخابرات، وجدت نفسها في غرفة مشابهة لغرفة سحر الخولاني. نفس الجدران الرطبة، نفس المصباح الخافت، نفس رائحة العفن والدم. لكنها هذه المرة كانت وحدها، لا أحد يعرف أنها هنا.

"أين زوجي؟ أين أطفالي؟" سألت الحراس.

لم يجب أحد. فقط تركوا باب الزنزانة يغلق خلفها، وانطفأ الضوء.

في الأسابيع التي تلت، لم يُسمح لها بالاتصال بأي شخص. لا بأهلها، لا بمحامٍ، لا بأي من زملائها في المنظمة الحقوقية. أصبحت مجرد اسم في قائمة المختفين قسراً، واحدة من المئات.

لكن الأصدقاء والناشطين لم ينسوها. في بيان إدانة صادر عن منظمة إرادة لمناهضة التعذيب والإخفاء القسري، قالوا:

"إن استمرار مليشيات الحوثي في إخفاء الناشطة فاطمة العرولي للشهر الثالث دون السماح لها بالتواصل بأقاربها يعد جريمة إخفاء قسري ضمن جرائم الإخفاء القسري الحوثية الجسيمة بحق المئات من النساء اليمنيات المختطفات في معتقلات الحوثي السرية".

لكن البيانات لم تكن كافية. لم تكن قادرة على فتح أبواب الزنازين، ولا على إعادة الأسماء المختفية إلى الحياة.

**"أبو مرتاح الصايدي"**

في مأرب، حيث الحرية نسبية، وقف الناشط أبو مرتاح الصايدي أمام الكاميرا. كان قد فرّ للتو من صنعاء، بعد أن تلقى تهديدات بالقتل. وجهه كان منهكاً، وعيناه تحكيان قصصاً لا يريد أن يرويها.

تحدث بصوت متعب: "شفت بأم عيني. الزينبيات في السجون الحوثية يمارسن تعذيباً قاسياً ضد السجينات. تعذيب مباشر، تشويه جسدي، عاهات مستديمة. لا فرق بينهن وبين حراس معسكرات الاعتقال".

توقف، بلع ريقه، ثم تابع: "سحر الخولاني، فاطمة العرولي، وغيرهن. كلهن يعانين. بعضهن انتحرن. لا تستطيعون تخيل ما يحدث هناك. إنه جحيم".

نظر إلى الكاميرا مباشرة: "أنا ناشط سابق في صفوف الحوثي. تركتهم. ليس لأنني خائن، بل لأنني رأيت الحقيقة. الحقيقة أنهم لا يريدون إلا السلطة، ولا يهمهم الدم ولا الكرامة ولا النساء".

في غرفة صغيرة في القاهرة، كانت انتصار الحمادي تشاهد مقطع أبو مرتاح. كانت تعرف كل كلمة يقولها، لأنها عاشت ما يقول. وضعت يدها على قلبها، وتذكرت الزينبيات، وتذكرت أم زينب، وتذكرت العصا المطاطية والمصحف الذي كانوا يقرؤون عليه آيات الجهاد بينما يضربونها.

أمسكت بهاتفها، وكتبت رسالة قصيرة إلى صديقتها الناشطة في صنعاء:

"المـرأة اليمنيـة في سـجون الحـوثي ليسـت مجـرد ضـحية. إنهـا مقاومة. كل يوم تعيشه هي انتصار على الموت. لا تنسوهم. لا تتركوا أصواتهم تموت في الأقبية".

ثـم أغلقـت الهـاتف، ونظـرت مـن النافـذة إلى نهـر النيـل. كانـت تعـرف أن المعركـة لـم تنتـهِ، وأن النسـاء الأخريـات مـا زلـن في الظـلام. لكنهـا كانـت تعـرف أيضـاً أن الصـوت لا يمـوت طالمـا هناك من يتذكره